رسول اللّه وخاتم النبيين

دين ودولة

القسم الثالث

إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً

أ. د. عبد العزيز بن إبراهيم العُمري
أستاذ السيرة النبوية
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (بالرياض)



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العُمري، عبد العزيز بن إبراهيم

رسول الله وخاتم النبيين/ عبد العزيز بن إبراهيم العُمري ـ الرياض، ١٤٣٢ هـ

٢٩٦ص؛ ١٤ سم × ٢١ سم

٥ مج

ردمك: ٩ ـ ٧٥٦٦ ـ ٠٠ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (مجموعة)

٣ ـ ٧٥٦٩ ـ ٠٠ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (ج٣)

١ ـ السيرة النبوية أ. العنوان

ديوي ٢٣٩ ١٤٣٢/٥١٦١

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٥١٦١

ردمك: ٩ ـ ٧٥٦٦ ـ ٠٠ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ ـ ٢٠١١م

• اسم الكتاب: رسول اللّه وخاتم النبيين دين ودولة ـ إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً
• تـــــأليـــــف: أ. د. عبد العزيز بن إبراهيم العُمري
• الطبعة الأولى: ذو الحجة ١٤٣٢ هـ ـ نوفمبر 2011م

ص. ب: 10437 ـ الريـاض 11635
E-mail: azizomary@hotmail.com

• الناشر: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام
ص. ب: 5261 ـ 13 بيروت ـ لبنان
تلفاكس: 351291 ـ 1 ـ 961
E-mail: info@bissan-bookshop.com
Website: www.bissan-bookshop.com

رسول اللّه وخاتم النبيين

ديـن ودولــة

القسم الثالث

إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ
لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾

[سورة التوبة: ٣٣]

معاهدة المدينة

جاء الرسول ﷺ ليقيم مجتمعاً إنسانياً عادلاً، يحفظ حقوق الإنسان وكرامته وأمنه، وجاء بالدين الصحيح ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

ومع هذا فقد كان للناس الخيار في أن يدخلوا في الإسلام، لا يكره أحد من الناس على ذلك ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة]. فالناس في ذلك أحرار، بعد أن يبلغهم الأمر.

إلا أنَّ ضمان النظام وحياة الناس وأمنهم والعدل فيما بينهم وحفظ حقوق الجميع لا خيار فيه، فهي ملزمة للجميع، ولذلك فإن الرسول ﷺ حين جاء المدينة كان المسلمون فيها أقلية مقارنة مع غيرهم من يهود المدينة ومشركيها، ومع ذلك

حرص ﷺ على التفاهم مع الجميع، وكتابة عقد بينهم لضمان الحقوق وحمايتها، وقيام حياة آمنة مشتركة في المدينة.

ومع أن الرسول ﷺ جعل أساس العلاقة الولاء والبراء، إلا أن التعايش مع الآخرين والاهتمام بالمصالح المشتركة لا يمنع الولاء والبراء والعلاقة على أساس العقيدة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات].

ولذلك سعى الرسول ﷺ لتنظيم العلاقة بين السكان مسلمين وغير مسلمين، وكتب في مرحلة مبكرة معاهدة على ذلك،(١) ((وكان رسول الله ﷺ عند قدومه المدينة وادعَ يهودَ وكتب بينه وبينهم كتاباً، واشترط عليهم أن لا يمالئوا عدوه، وأن ينصروه على من دهمه))،(٢) وهي ما عرفت بوثيقة المدينة، أو موادعة المدينة.

إن هذه الوثيقة أو الصحيفة كما سماها البعض، أو الدستور المشترك كما سماها آخرون،(٣) ثابت كتابتها في بداية هجرة

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٥٠١؛
لدراسة موسعة عن تخريج الروايات الواردة عن الوثيقة انظر: د. أكرم العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج١/ ٢٧٦.
وقد ضعَّف أحد الباحثين القول بالوثيقه، (انظر: اليامي ضيدان عبدالرحمن، بيان الحقيقة في الحكم على الوثيقة، «وثيقة المدنية» مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٨). ورأيه محل نظر، فشواهدها كثيرة وثابتة بطرق عديدة وإن اختلفت رواياتها لكن بعضها يعضد بعضاً في إثبات وجود الوثيقة مع التفاوت في ألفاظها ومحتواها والمشاركين فيها من رواية لأخرى.
(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج١/ ٨٦.
(٣) انظر: صالح الشامي، من معين السيرة، ص ١٨٠.

الرسول ﷺ وقبل بعثه للسرايا وغزواته، وورود روايات أخرى لوثائق وكتب حدثت بين الرسول ﷺ ومن معه من المسلمين وبين يهود وغيرهم من سكان المدينة لا ينفي الوثيقة الأولى أو يناقضها.

وفي هذا إجابة على تساؤل البعض هل كانت صحيفة واحدة أم أنها أكثر من صحيفة؟.[(١)]

فهذه الكتب والوثائق الجديدة بعضها تأكيد للوثيقة الأولى بمناسبة خاصة، وبعضها وثائق جديدة تؤكد الأصل الأول ثابتة بروايات يعضد بعضها بعضاً.

ولعل وجود بوادر نقض لبعض بنود الوثيقة من قبل جماعات من يهود ما دعا لتجديدها أحياناً من بعضهم أو إنشاء عهد جديد.

لقد كانت الوثيقة (كتاب مصالحة وحسن جوار على أن يسالموه، ولا يعينوا عليه عدوه، وأن يقفوا بجانبه في وجه من يعاديه ويهدد أمن المدينة المنورة).[(٢)]

إن هذه المعاهدة تعني إقامة نظام على رأسه النبي ﷺ وتحديد مسؤوليات أمنية ودفاع مشترك على جميع السكان، مع عدم إكراه أحد على دينه، علماً أنه في هذه المرحلة كان تهديد

---

(١) الجميل: محمد بن فارس، النبي ﷺ ويهود المدينة، ط١، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، الرياض، ١٤٢٢هـ، ص٨٤.

(٢) عبد الحميد طهماز، سيرة النبي، ص ٢٧٣.

المدينة عموماً والنبي ﷺ خصوصاً قائم بقوة، حيث أن مشركي مكة يصدرون التهديدات الواحد تلو الأخر، كما ينبغي التنبه إلى أنه في هذه المرحلة المبكرة من الهجرة لم تكن التشريعات قد اكتملت في ما يتعلق بمعاملة أهل الذمة من الجزية وغيرها، ومن الزكاة لأهل الإسلام، مع حفظ الحقوق لهم جميعاً، فالمرحلة مبكرة وسابقة لمختلف التشريعات المالية التي تحددت في مراحل لاحقة، بواجبات مالية معينة كلٌّ حسب حاله.

ولم يكن وراداً في هذه المعاهدة ولا في غيرها إبعاد أي من يهود أو سكان المدينة من غير المسلمين، ما داموا ملتزمين بشروط المعيشة المشتركة، والسلام الاجتماعي العام لكل سكان المدينة، وما يمكن أن يكون شبيهاً بالمواطنة المشتركة المعاصرة، مع حفظ كل فئة لحقها في الاعتقاد والديانة، دونما إكراه على الإسلام.

إن هذه المعاهدة المدنية، تعد مثالاً لتنظيم عادل ومسؤولية اجتماعية ومرجعية نظامية مكتوبة للتحاكم يُرجَع إليها، وهي تشبه بعض الأنظمة في الدول الحديثة التي تتيح حرية الدين وعدم الإكراه عليه، مع الالتزام بالأمن والنظام المشترك والمسؤولية الجماعية، وهذه المعاهدة اعتبرت أساساً في قيام دولة المدينة النبوية وتركيز المسؤولية فيها بيد الرسول ﷺ، تمهيداً لتطبيق الشريعة حسب نزولها، وتأكيداً للمسؤولية بيد أعدل الناس ﷺ.

الإذن بالقتـال

من المعروف أن رسول الله ﷺ كان يتلقى الأمر والإذن من الله سبحانه وتعالى في كل شؤونه وأعماله المرتبطة بالدين والتشريع. والقتال باسم الدين من أخطر الأمور، وقد تعرض الرسول ﷺ وأصحابه منذ انطلاق دعوته في مكة لأشد أنواع الأذى، فقد أُوذوا في الله، وسلبت أموالهم وأريق دم بعضهم، وحبس الكثير منهم وشرد آخرون واضطروا لترك بيوتهم وأموالهم في مكة والهجرة إلى الحبشة أو المدينة في آخر الأمر.[1]

ومع كل هذه الأحوال فإن الرسول ﷺ كان في مكة يدعو أصحابه للصبر والتحمل، واحتساب الأجر عند الله، ويذكرهم بالمؤمنين من الأمم السابقة، ما فُعِلَ بهم من أذى وقتل، وفي الوقت نفسه يفتح قلوبهم على الأمل ومبشرات انتشار الإسلام

---

(١) انظر: الهجرة إلى المدينة من هذا الكتاب.

وإتمام الأمر له في كل آفاق الدنيا ودخوله ((في كل بيت حجر ومدر))[1] قادم. وأن الأمن للمؤمنين قادم ((ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله)).[2]

وأن الممالك الطاغية في زمانه زائلة وسيغنم المسلمون كنوز كسرى.[3] وهذا يعني أن الله سبحانه وتعالى ناصر دينه وعباده الصالحين ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التوبة].

وبعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة واستقراره فيها لم يدعه المشركون على حاله، بل كانوا يهددونه ويطاردون أصحابه المهاجرين، ناهيك عن استمرار الاعتداء على من في مكة ممن بقي من المسلمين ومن يزورها منهم سواء من القرشيين أو من غيرهم.

وكانت الهجرة إلى المدينة مرحلة جديدة في إيجاد قوة للمسلمين وتجنيدهم للدفاع عن الإسلام وأهله.

---

(١) انظر: أذى المشركين للرسول ولأصحابه من هذا الكتاب.

(٢) رواه البخاري، فتح الباري، ج٧/ ١٩٥؛ ورواه أحمد في المسند، ج٥/ ١١٠.

(٣) ابن إسحاق، السيرة النبوية والمغازي، ص٢٤١؛ ومسند الإمام أحمد، ج٤/ ٨٩، ١٠٠؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٤.
وانظر: عبد العزيز العمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور، مرجع سابق، ص٢٠.

ولذلك فإن من شروط بيعة العقبة الثانية ((أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم))، إنها بيعة الدفاع ولو أدى الأمر إلى قتال، ولذلك أدرك أسعد بن زرارة هذا الأمر فحدث الأنصار قائلاً لهم: (إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس). [1]

كان الأمر واضحاً في تمييز المرحلة الجديدة بعد الهجرة، ولذلك كان المهاجرون والأنصار على استعداد تام للتضحية والفداء والجهاد قبل فرضه، يدركون التبعات على عواتقهم وأموالهم، كما كانت قريش تدرك تبعات المرحلة، حيث انزعج مشركوها كثيراً عندما علموا ببيعة العقبة، وحاولوا منع الرسول ﷺ من الهجرة، لأنها في النهاية تعني الصدام مع هؤلاء المؤمنين المظلومين بعد تكوين قوتهم: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال]. ولإدراكهم للمرحلة القادمة في أمة الإسلام ونمو قوة المسلمين والتخطيط لدفع الأذى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج].

كان المشركون يعلمون أن الرسول ﷺ لم يقاتل في مكة ولم يأمر أصحابه بذلك، وإن كان في بعضهم قدرة، وخصوصاً بعد إسلام عمر رضي الله عنه وزيادة إعدادهم، وقوله:

---

(١) انظر: بيعة العقبة الثانية.

(أحلف بالله لو قد كنا ثلاثمائة رجل تركناها لكم أو تركتموها لنا).[1]

الإذن بقتال المشركين أو (الجهاد) كمصطلح شرعي هو تشريع رباني بنص القرآن، من أهدافه الدفاع عن المظلومين، وإسماع الناس كلمة الحق والدين بجهاد من يعتدي على دعاة الرسول ﷺ، ويمنع عامة الناس من سماع كلمة لا إله إلا الله، أو يعتدي على أوطان المسلمين وحرماتهم، والجهاد ارتبط بكونه في سبيل الله ولإعلاء كلمة الله وفي سبيله يقدم المال والنفس وكل شيء.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء].

وبعد مدَّة من الاستقرار في المدينة، وعناية الله بعباده المؤمنين، وصبر منهم والتزام بأمر الله والكف عن القتال، نزل على رسول الله ﷺ آيات قرآنية يأذن الله فيها بالقتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج].[2]

ومن خلال الآية يتضح أن الإذن جاء بعد منع، وأن الإذن

---

(١) انظر: إسلام عمر بن الخطاب.

(٢) وضع ابن هشام في السيرة عنواناً خاصاً سماه: بدء قتال المشركين، ج٢/ ٥٩٠.

ليس فيه فرض ولا إجبار، إنما هو سماح من الله سبحانه وتعالى، وتتحدث الآية بوضوح بأنهم ظلموا، كما تتضمن وعداً صريحاً من الله سبحانه وتعالى بنصرهم وهو القادر على ذلك، أما أنواع الظلم الذي تعرضوا له فمنه ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٤٠)﴾ [الحج]. إن سبب إخراجهم دوافع الظلم والعداء التي جعلت قريشاً ومن تابعها يفعلون بالمؤمنين ما فعلوا.

وماذا سينتج عن هذا الأمر؟ فهي سنة التدافع البشري التي يعلمها الله سبحانه وتعالى في بني آدم منذ وجدوا على هذه الأرض، وهي حقيقة قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٥١)﴾ [البقرة].

وتتوالى الآيات على نبيه لتؤكد التمكين للمؤمنين وأن له معنىً وهدفاً هو: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ (٤١)﴾ [الحج].

كان الرسول ﷺ يعلم أن التمكين والجهاد يحتاجان إلى قوة، وإلى إعداد الرجال بالدرجة الأولى ثم العتاد وما يرتبط به.

وقد نزل بعد ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة].

وفي هذه الآيات أمر من الله سبحانه وتعالى بقتال الذين يفتنون الناس عن دين الله.

لقد كان القتال لمنع الظلم وليس الاعتداء، ومن هنا نزل قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء].

لقد أصبحت حياة رسول الله ﷺ مقاومة للشرك، مليئة بالجهاد بمفهومه الشامل وعلى رأسه قتال المشركين بعد مرحلة الإذن بالقتال، حتى إن كثيراً ممن أَلَّفَ في حياة الرسول ﷺ وفي سيرته عنون لذلك بما يوحي بغلبة الجهاد والمغازي على السيرة النبوية.(١)

لقد كان المشركون يقاتلون النبي ﷺ، فلماذا لا يقاتلهم؟ ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة].

---

(١) ممن ألف بهذا العنوان: ابن إسحاق، كتاب المغازي والسير؛ ابن أبي شيبة، كتاب المغازي؛ الواقدي، كتاب المغازي، والبخاري في صحيحه، (كتاب المغازي)، وموسى بن عروة، وعروة بن الزبير وغيرهم.

ولذلك فقد بلغت غزوات الرسول ﷺ وسراياه ما يزيد على (٦٠) ستين غزوة وسَرِية، منها ثماني عشرة غزوة قادها بنفسه، قاتل في ثمان منها.[١] [٢]

وهناك اختلاف بين العلماء في العدد يأتي في التفريق بين الغزوة والسرية،[٣] أحياناً، أو احتساب الحادثة سريه أو غزوة وليس في وقوع الحدث أصلاً.

إن الجهاد والمغازي في أيام الرسول ﷺ من أعظم أسباب التمكين لرسول الله ﷺ في أيامه وأسباب القضاء على الشرك والجاهلية، كما كانت إعداداً للانطلاقة الكبرى للفتوح الإسلامية التي كان أهم أهدافها منع الظلم عن الناس وإتاحة الفرصة لهم لسماع كلمة الحق مع التأكيد على أنه ((لا إكراه في الدين))[٤] والوعد بأنه ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التوبة].

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٣٥٣.

(٢) انظر: مناقشة العدد من خلال المصادر المختلفة عند: بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة.. دراسة نقدية، ص٥٨.

(٣) بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص٥٤؛ وانظر: روايات ابن أبي شيبة في كتابه المغازي، تحت عنوان: «في غزوات النبي ﷺ كم غزا»، ص ١٦٩.

(٤) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج١/ ٣٢١.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥﴾ [القصص].

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٩٩﴾ [المائدة].

وهو تشريع كفى به أنه أُقر من رب العالمين، وذُكر في القرآن الكريم بما يجاوز العشرين مرة، ونزلت فيه أحكام محددة درسها الفقهاء وسارت عليها الأمة، وقد تميز الرسول ﷺ عن معظم الأنبياء السابقين بالجهاد والغزوات ودخوله بنفسه معارك مختلفة وتنظيمه وقيادته لها بكافة جوانبها،(١) وتطبيقه للجهاد كما في الشريعة الإسلامية من قوةٍ ورحمةٍ وعدل وحرية في وقت واحد.(٢)

كما كان لها تضحيات وشهداء بذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله.(٣)

وإن أساء بعض المخطئين ممن يعتدون على المسلمين واستخدموا هذا المصطلح لأعمال إجرامية، فإن هذا الخطأ منهم وتحوير المفاهيم أو خطأ استخدامها لا يعني تجاهل

---

(١) انظر: خطاب، محمود شيت؛ الرسول القائد، ط٢ مكتبة الحياة، بغداد، ١٩٦٠، ص٦.

(٢) كولن: فتح الله؛ الرسول ﷺ قائداً التنظير والتطبيق، ترجمة أورخان محمد علي، دار النيل، القاهرة، ١٤٢٥هـ ص١١.

(٣) انظر: قطب، محمد؛ غزوات رسول الله ﷺ وسجل الشهداء، المكتبة العصرية ١٤٢٥،هـ.

الجهاد الإسلامي الحقيقي عبر العصور دون استثناء، وأن تكون الأمة جاهزة للدفاع عن نفسها مستعدة لذلك، وفق ما أمر الله سبحانه وتعالى وإلا هوجمت واستضعفت الأمة من قبل أعدائها، الذين رأينا في العصر الحاضر كيف فعلوا بالمسلمين في كل مكان، إن الدفاع عن الدين وحماية الوطن ورباه أمام الأعداء جزء مما شرع الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٤٠)﴾ [الحج].

فينبغي أن لا ننسى هذا المفهوم وأنه لا يُردع الأعداء إلا بالقوة والجهاد، فمجرد ذكره يرعب أعداء الإسلام.

إن الكثيرين يحاولون تشويه المفهوم الإسلامي للجهاد، وإلصاقه بأعمال خارجة عنه ليسلخوا هذا المفهوم عن الأمة، بل ربما كَرَّهوا فيه أبناء المسلمين بما يسمعون من وسائل الإعلام من ربط بينه وبين الاعتداء أو(الإرهاب).

سواء في ذلك الإعلام العالمي الذي بيد أنصار إسرائيل أو بعض وسائل الإعلام المملوكة بأموال مسلمين وتوجهاتها تخدم أعداءه، فقد أُكثر من طرق هذا الموضوع بطريقة تخدم الأعداء، ساعدهم في ذلك أعمال بعض المفتونين الذين يعتدون على الناس باسم الدين.

صيام رمضان

عرف الصيام عند أهل الكتاب قبل الإسلام، ولا يزال كذلك عند بعضهم مع تحريفهم في كيفيته ومدته عن ما جاءهم من شريعة أصلاً، مع وجود بقية من بعض الشعائر المرتبطة بالصيام ((لمّا قَدِمَ النبي ﷺ إلى المدينة وجد اليهود يصومون عاشوراء فسئلوا عن ذلك فقالوا: هذا هو اليوم الذي أظهر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون ونحن نصومه تعظيماً له فقال رسول الله ﷺ نحن أولى بموسى منكم ثم أمر بصومه)).[1]

وفي شعبان من السنة الثانية لهجرة المصطفى ﷺ نزل فرض الصيام على المسلمين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣

(١) صحيح البخاري، ج٤/ ٢٦٩.

أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة]، فأصبح الركن الرابع من أركان الإسلام.

وارتبطت أحكام كثيرة بالصوم وتشريعاته، بعد أن صار ركناً من أركان الإسلام، ونزل عدد من الآيات عن الصيام منها قوله تعالى ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٔانَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة].

كما تبع ذلك تشريعات في دخول الشهر وخروجه، وتبعه عيد الفطر وله أحكامه، وأصبح تحري الشهر وصيامه عبر العصور الإسلامية إلى اليوم الحاضر من اهتمامات المسلمين، وأصبح الصغار والكبار يهتمون بهذا الشهر الكريم ويقيمون له

شعائره الخاصة، من الصيام والقيام ويكثرون فيه أعمال البر والطاعات والصدقة، وأُلِّف فيه الكثير من الكتب والدروس والأعمال العلمية والدراسات المختلفة إلى اليوم الحاضر.

وقد اقترن شهر الصوم بنزول القرآن ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ ١٨٥﴾ [البقرة]، ولذلك كان الرسول ﷺ يكثر من تلاوة القرآن خصوصاً في رمضان، كما كان ﷺ يعتكف فيه، وجاءت في الاعتكاف أحكام وتشريعات شتى ارتبطت به.[1]

كما اقترن بوجود ليلة القدر،[2] فيه ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ [القدر]، فكانت الأمة تتحرى هذه الليلة بالأعمال الصالحة من القيام والصدقة والصلة والاعتكاف.

وهكذا كان الصيام قريناً للقيام وتلاوة القرآن، وصار رمضان شهر الطاعات والقربات والصدقات وسائر أعمال البر والخيرات، وسيظلّ كذلك عند أمة الإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن يراقب حال المسلمين في رمضان، وما يطرأ عليهم فيه من تغيير وصلاح فردي وجماعي وعطاء وبذل، يدرك أهمية هذه الشعيرة في حياة الأمة.

---

(١) انظر: صحيح البخاري، أبواب الاعتكاف، باب الاعتكاف في العشر الأواخر، ج٢/ ٢٥٥.

(٢) ابن كثير، تفسير، ج٢/ ٢٠١٣.

تحويل القِبلة

كانت قبلة المسلمين قبل الهجرة وبعدها مباشرة تجاه بيت المقدس. وفي شعبان من السنة الثانية للهجرة صرف الله قبلة المسلمين من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام،(١) في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة].

وقد حاول يهود ومن على شاكلتهم فتنة المسلمين عند تحويل القبلة، فسماهم الله سبحانه وتعالى السفهاء: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، عنوان «صرف القبلة إلى الكعبة»، ج٢/٦٠٦؛ وابن كثير، عنوان «تحويل القبلة»، ج٢/ ٣٧٢.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى امتحان يمر به المسلمون، وهو اتباع الرسول ﷺ من عدمه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة].

وقد نجح المسلمون بفضل الله، فقد ورد أن أول صلاة صلاها رسول الله إلى المسجد الحرام بمكة هي صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى مع الرسول ﷺ تجاه مسجد للأنصار، فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قِبَلَ البيت))،(١) وعُرِف مسجدهم، ولا يزال إلى اليوم الحاضر، بمسجد القبلتين، وهو أحد أشهر مساجد المدينة اليوم.(٢)

وقد حاول يهود إثارة الفتنة بتساؤلهم عمَّن مات قبل تحويل القبلة وصلاته كلها إلى المسجد الأقصى، فجاء الرد في القرآن ـ كما ذكرنا سابقاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى

---

(١) انظر: البخاري، صحيحه، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو الكعبة حيث كان، حديث رقم: ٣٩٩، ٣٩٩؛ تفسير ابن كثير، ج١/٢١٦.

(٢) انظر: عبد العزيز كعكي، المجموعة المصورة لأشهر معالم المدينة المنورة، ج١/ ١٧٠.

ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة].

ولم تكتف الآيات بذلك، بل أشارت إلى علم اليهود بهذا الأمر، وأنها قبلة للمسلمين بأمر الله، ومع علمهم بذلك، فقد عاندوا وكذبوا ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة].

كما أكدت الآيات خلاف يهود المستمر للمسلمين في القبلة وفي غيرها، مهما كانت الأدلة: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة]. وأكدت الآيات على التوجه بالقبلة للبيت الحرام في كل مكان.

وأمر القبلة ليس هيناً عند المسلمين، فعبر العصور والأماكن يجتهدون في متابعتها ومعرفة وجهتها قبل أي صلاة، والمسافر في مختلف البلدان يجد محاريب الصلاة في المساجد موجهة إلى القبلة التي أمر الله بها، ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ

لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة].

ولذلك ففي العصر الحاضر نجد الإشارة لها في غرف بعض الفنادق وبعض المطارات وغيرها، في العالم الإسلامي وخارجه، وصارت القبلة شعاراً للمسلمين ومطلباً لهم في كل مكان، والمسافر لغير البلاد الإسلامية تجده يحمل بوصلة خاصة لتحديد القبلة،أو يسال عن الاتجاهات، حتى صارت بعض الفنادق في البلاد غير الإسلامية تحدد القبلة للمسلمين في الغرف بعلامات خاصة، واشتهر المسلمون في العالم بهذا الأمر حتى صارت الكعبة شعاراً لهم وتميزوا بوحدة القبلة من أي مكان في العالم، فكانت متابعة المواقيت للصلاة والوجهة (القبلة) مميزة للمسلمين عن غيرهم فعند المسلم الوقت والجهة مرتبطان بالصلاة لهما مكان في القلب.

بداية السرايا والغزوات

لم تتوقف قريش عن أذى المسلمين بعد هجرتهم إلى المدينة، فكانت تحبس بعضهم في مكة، وتهدد الأنصار وتمنعهم من الوصول إلى مكة، وتؤذي من يقع في أيديهم، ووصلت تهديداتهم للمهاجرين في المدينة، حيث تم اختطاف بعض مهاجري مكة من المدينة،(١) وكانوا يعلنون وباستمرار تهديدهم للرسول ﷺ، وكل من يتبعه.

وفي هذه الظروف نزل الإذن بالقتال، وتطلب الأمر الإعداد بما في ذلك من تجهيز للنفس والسلاح والدواب والتدريب والمعلومة. ثم بدأت الانطلاقة لما يعرف بالسرايا والغزوات النبوية.(٢)

---

(١) انظر: قصة اختطاف عياش بن أبي ربيعة، في موضوع الهجرة من هذا الكتاب.

(٢) وضع البخاري في صحيحه باباً سماه «باب كم غزا النبي ﷺ»، وذلك في آخر كتاب المغازي، ج٥/ ١٤٥.

ويطلق اسم الغزوة على الجيش الذي يقوده الرسول ﷺ بنفسه، والسرية على الجيش النبوي الذي يسيره النبي ﷺ ويقوده أحد الصحابة.[1]

وكان العداء واضحاً من قريش للمسلمين، ولكن المسلمين لم يقفوا مكتوفي الأيدي، كما أضرت قريش بالمسلمين ومصالحهم، فقد سعى المسلمون بعد الإذن بقتالهم إلى ضرب مصالح قريش، حيث كانت تجارتها تمر بالقرب من المدينة، فاختار المسلمون تهديد طرق تجارتهم والتضييق عليهم، وإشعار قريش بقدرة المسلمين على التصدي والمناورة والإضرار بأعدائهم.

وكانت السرايا إعداداً عسكرياً ومناورات تدريبية لجند الرسول ﷺ إضافة إلى أهدافها المحددة في حينها.

كما كانت في الوقت نفسه إشغالاً عملياً للشباب والرجال وطاقتهم، وخصوصاً المهاجرين الذين وصلوا المدينة وليس لبعضهم عمل محدد يشغلهم، إضافة إلى تدريب القادة منهم والعامة على الأعمال العسكرية، والصبر والسفر والتحمل والقتال والاستعداد له.

---

(١) انظر: بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية، ص ٥٤؛ الزرقاني، المواهب اللدانية، ج١/ ٣٨٧.

السرايا الأولى[1]

تعد السرايا والغزوات السابقة لغزوة بدر الكبرى سرايا أولية أعقبت الإذن بالقتال، ولم يتضح فيها تفوق المسلمين، وكانت مناورات تدريبية وتحركات محدودة سبقت غزوة بدر، ومن أهمها:

سرية حمزة بن عبد المطلب (إلى سيف البحر)

حدثت في شهر شوال من السنة الأولى للهجرة النبوية. بعد سبعة أشهر من هجرة النبي ﷺ، عقد رسول الله ﷺ أول لواء لجيش إسلامي بقيادة حمزة بن عبد المطلب وكان قوامه المهاجرون رضي الله عنهم،[2] وقد شيع رسول الله ﷺ الجيش بنفسه،

(١) انظر: بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة.. دراسة نقدية تحليلية، دار ابن الجوزي، الدمام، ١٤١٧هـ؛ عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ص١٤٣.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٥٩٥.

وكان هدف الجيش اعتراض عِيْرٍ لقريش قادمة من الشام إلى مكة، فيها ثلاثمائة رجل من قريش، منهم أبو جهل الحكم بن هشام، وقيل كانوا أقل من ذلك، وقد توجه حمزة بجيشه إلى ناحية العيص مناطق جهينة، ولم تقع أي معركة بين الطرفين، حيث عمل (مجدي بن عمرو الجهني) أحد زعماء جهينة على الحجز بين الفريقين، وكان حريصاً على حلفه مع قريش وعلى موادعة النبي ﷺ، وانصرف حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ولم يقاتل، ولعل في عدم نشوب قتال بين الطرفين مصلحة للمسلمين، حيث ذكر أن مجدي بن عمرو الجهني قدم على النبي ﷺ في المدينة فأجازه.[1]

وهذا دليل على حسن تعامل المسلمين وتقديرهم لزعماء المنطقة، وتقدير موقف مجدي بن عمرو الجهني في الحجز بين الطرفين ومنع القتال، ولعل الموقف أثبت له الفرق بين سلوك المسلمين ومن غيرهم.

سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب

ابن عمِّ رسول الله ﷺ أحد شهداء بدر بعد ذلك.[2] كانت في شهر شوال من السنة الأولى للهجرة النبوية.

---

(١) انظر: الطبري، السيرة النبوية، ص١٠٥، ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ١٧٢. وانظر: أحمد بن محمد الأمين الشنقيطي، البعوث والغزوات النبوية، ص ٢٨.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٧٠٦.

أرسله ﷺ على رأس جيش قوامه ثمانون رجلاً كلهم من المهاجرين رضي الله عنهم،[1] وعقد له ﷺ لواءً أبيض، وكانت وجهته نواحي رابغ،[2] لقطع الطريق على عير لقريش كان يقودها أبو سفيان بن حرب، ومعه عكرمة بن أبي جهل، على ما يقارب المائتين من رجال قريش، وتناوش الطرفان وتراموا بالنبال، ولم يقع قتال مباشر بين الطرفين، وقد كان سعد بن أبي وقاص يرمي أسهمه ببراعة ما جعله يصيب عدداً من المشركين بجراح، فكان أول من رمى سهماً وأراق دماً في سبيل الله.[3]

وكان في قافلة المشركين عتيبة بن غزوان المازني، والمقداد بن عمرو، وكانا مسلمين، ففرا من قريش والتحقا بأصحاب رسول الله ﷺ.[4]

سرية سعد بن أبي وقاص

في شهر ذي القعدة من السنة الأولى للهجرة عقد رسول الله ﷺ لواءً لسعد بن أبي وقاص في عشرين رجلاً حمل لواءه

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٥٩١.

(٢) ذكر ابن هاشم أن وجهتهم ثنية المرة ماء بالحجاز، ج٢/ ٥٩١؛ وانظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢/ ٨٥؛ وعنوان لها د. بريك أبو مايلة، سرية عبيده بن الحارث إلى رابغ، انظر: السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٨٩.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٥٩١.

(٤) انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/ ٧.

المقداد بن عمرو حليف بني زهرة.[1] وقد حدد لهم ﷺ هدفاً قافلة لقريش، وأمرهم أن لا يتجاوزوا الخرار وهو وادٍ يصب في الجحفة،[2] فلما وصلوها وجدوا أن قافلة قريش سبقتهم، فلم يجاوزوا ما أمرهم رسول الله ﷺ، وكان سعد بن أبي وقاص ومن معه يسيرون بالليل ويكمنون بالنهار إمعاناً في السرية والتخفِّي.[3]

سرية عبد الله بن جحش (إلى نخلة)[4]

بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش في اثني عشر رجلاً من المهاجرين في سرية إلى نخلة ومعه ثمانون من المهاجرين.[5]

وحدد له وجهةً، وأعطاه كتاباً،وأمره أن لا يفتحه إلا بعد أن يسير يومين في الوجهة التي حددها له. وبعد مسيرة يومين نظر

(١) انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/ ٧.

(٢) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٦/ ١٥.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٦٠٠؛ الواقدي، المغازي، ج١/ ١١؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/ ٧؛ بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول مكة والمدينة، ص ١٩٥.

(٤) نخلة: اليمانية موضع على بعد ليلة من مكة. انظر: بريك أبو مايلة، السرايا والبعوث النبوية، وقد وضع صورة للوادي، حيث وقعت أحداث السرية، ص٩٥.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٦٠١.

عبد الله بن جحش في كتاب النبي ﷺ فإذا فيه: ((إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم من أخبارها)).[١]

فلما قرأ الكتاب قال: سمعاً وطاعة يا رسول الله، ثم أخبر أصحابه بما أمر به رسول الله ﷺ في كتابه، وذكر لهم أن رسول الله ﷺ نهاه أن يستكره أحداً من أصحابه في المسير معه وقال لهم: ((من كان منكم يريد الشهادة ويرغب بها فينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف منهم أحد)).[٢]

وواصل عبد الله بن جحش ومن معه من المهاجرين الطريق إلى نخلة، عدا عتبة بن غزوان وسعد بن أبي وقاص اللذين أضلا بعيراً لهما، فانفصلا عن الجيش، بحثاً عن البعير.[٣]

ووصل عبد الله بن جحش إلى نخلة المكان المستهدف بأمر الرسول ﷺ، فمرت بهم عِيرُ لقريش تحمل أُدماً وزبيباً، وتجارة لقريش من الطائف، فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان ونوفل وابنا عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان من موالي المغيرة، وكانوا في آخر يوم من رجب، وهو أحد الأشهر الحرم عند

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ابن هشام، ج٢/ ٦٠٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣/ ٢٧٤.

العرب. وتشاورت السرية في قتالهم من عدمه خشية القتال في الأشهر الحرم، وفي الوقت نفسه خشوا أن تدخل العير في حدود الحرم وهم بالقرب من مكة، أو أن تقابلهم قريش بهجوم معاكس، فاستقر أمرهم على مقاتلة قافلة قريش، وأجمعوا القتال، فتمكنوا من قتل عبد الله بن الحضرمي،[1] وأَسْر رجلين، وفر الرابع، فاستاقوا العير والأسيرين إلى المدينة المنورة، فلما وصلوا المدينة تكلم الناس عن قتالهم في الشهر الحرام فقال ﷺ: ((ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام)) فأُسقِط في يد عبد الله بن جحش ومن معه من السرية وظنوا أنهم هلكوا، واشتد تعنيف إخوانهم من الصحابة لهم، وأخذ المنافقون والمشركون يروجون لذلك، وشنوا حملة على المسلمين، وأنهم استحلوا الأشهر الحرم. وفي هذه الظروف الصعبة على أصحاب السرية نزل على الرسول ﷺ قوله تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة].

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٦٠٣. محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ج٢/١١٩.

وقد سُرَّ رسول الله ﷺ وسر الصحابة بهذه الآيات وانكشف عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا يشعرون به من غم،(١) فقبض الرسول ﷺ الغنيمة وصرفها في مصرفها، وأمسك بالأسيرين حتى عاد سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان إلى المدينة فقبل فداء الأسيرين من قريش.(٢)

وكانت الغنيمة وفداء الأسيرين من أول ما كسبه المسلمون من غنائم قريش. كانت هذه السرية من أخطر السرايا على قريش، حيث قطعت وهددت الطريق بينهم وبين الطائف وهي أقرب المدن إلى مكة، وبالتالي شعروا بقوة المسلمين وخطرهم على تجارتهم في محيط مكة ناهيك عن طريق الشام.

من الملاحظ أن تلك السرايا الأولى كان عماد جندها المهاجرون ومعظمهم من قريش وقادتها رجال من قريش من أقرب الناس إلى النبي ﷺ، وتوجهت للإضرار بقوافل قريش التجارية والتضييق على تجارها ورجالها، وهم الذين آذوا المهاجرين وأخرجوهم من ديارهم بغير حق وسطوا على أموالهم ودورهم، فبادر المهاجرون بالمشاركة، وكانوا عماد تلك السرايا.(٣)

---

(١) ابن كثير، تفسيره، ج١/ ٢٧١.

(٢) ابن حجر، الإصابة، ص ٢/ ٢٨٦.

(٣) انظر: عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ص ١٤٣؛ بريك أبو مايلة، السرايا والبعوث النبوية حول مكة والمدينة، ص ٦١.

إن الذين شاركوا من المسلمين فيها كان باختيارهم، ولم يُجبر أحد منهم على المشاركة، بالإضافة إلى أن الأنصار لم يشتركوا فيها في هذه المرحلة، ولعل الرسول ﷺ أراد إشغال المهاجرين الذين تزايدت أعدادهم، وفي الوقت نفسه تدريبهم وتعريفهم بالطرق والمناطق المحيطة بالمدينة المنورة، والتي ربما كانت جديدة على بعضهم.

كما أن الأنصار مشغولون بمزارعهم وأهليهم، وفي الوقت نفسه يتولون الدفاع عن المدينة وعن رسول الله ﷺ فيها، تنفيذاً لعهده معهم في بيعة العقبة الثانية.

ولا شك أن هذه السرايا قد أكسبت المشاركين فيها قوة وتدريباً وتحملاً، ومعرفة بالطرق والقبائل واستعداداً نفسياً وعسكرياً لمشاركة الرسول ﷺ في غزواته.

وقد حققت نجاحاً في استهداف قوافل قريش، وإشعارها بالخطر الذي تواجهه وبقدرة المسلمين على التعرض لهم كما تتعرض قريش للمسلمين والمقيمين بمكة والذين يمرون بها، وتحاول فتنتهم عن دينهم، كما أشارت الآيات القرآنية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ

حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ [البقرة].

وقد حصلت بعضها قرب مكة في ما بينها وبين الطائف وبعضها إلى الساحل غرب وشمال مكة، وفي كل ذلك تهديد مباشر لمكة وأَخْذٌ للطرق التجارية التي تسلكها، وإحاطةٌ بمكة من كل مكان، وخصوصاً شمالاً وشرقاً وغرباً.

الغزوات الأولى

قبل غزوة بدر التي تعد فرقاناً وفاصلاً بين كثير من الأحداث في السيرة النبوية، بل وفي التاريخ العالمي كله قام الرسول ﷺ، بغزوات متعددة قادها بنفسه، بالإضافة إلى السرايا التي بعث على رأسها من قادها الصحابة ﷺ، وكانت أهدافها في هذه المرحلة متقاربة، حيث تركز على قطع تجارة قريش إلى الخارج والتعرض لقوافلها التجارية ورجالها، وإشعار قريش بقوة المسلمين وقدرتهم على الدفاع عن أنفسهم بل واستعادة ما أخذ من أموالهم في مكة.

غزوة الأبواء[١]

وتسمى (بواط)،[٢] في شهر صفر من السنة الثانية للهجرة

(١) الأبواء: قرية من أعمال الفرع بالمدينة، تبعد عنها ثلاثة وعشرين ميلاً؛ انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ص٥٩١، هامش رقم: ٢.

(٢) جبل لجهينة ناحية جبل رِضْوى المشهور قرب ينبع (البكري، معجمُ ما استعجم ج١/ ٢٨٣). ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١/ ٥٠٣.

بعد قرابة اثني عشر شهراً من هجرة الرسول ﷺ. وقد حمل لواءه ﷺ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.[1]

وقد عين ﷺ سعد بن عبادة أميراً على المدينة أثناء غيابه.

وخرج بالمهاجرين، وكانت وجهته ﷺ اعتراض عير لقريش، وهي تمر ناحية جبل رضوى[2] من ديار جهينة.

وكان قائدُ عير قريش أمية بن خلف، وهو من أكثر قريش عداء لرسول ﷺ.

ولم يلق الرسول ﷺ كيداً ولا قتالاً، وأثناء الغزو لقي ﷺ بني ضمرة من بني عبد مناة وعقد معهم عهداً جاء فيه: ((بسم الله هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لبني ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وأن لهم النصرة على من رامهم، إلا أن يحاربوا في دين الله عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله ولهم النصر على من بر منهم واتقى)).[3]

وهناك من يرى أن الأبواء وبواط غزوتين منفصلتين في

---

(١) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٣٥٦.

(٢) رضوى: جبل في تهامة الحجاز نواحي ينبع على ليلة منها وليلتين من البحر وسبع ليال من المدينة. (البكري، معجم ما استعجم، ج١/ ٦٥٥).

(٣) محمد حميد الله؛ الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص٢٦٢ وثيقة رقم (١٥٩).

وانظر: أحمد الشنقيطي، البعوث والغزوات، ص ٣١.

زمن متقارب.[1] وقد رجع الرسول ﷺ سالماً بعدها لم يلق كيداً.

غزوة العشيرة[2]

وهو موضع في ناحية ينبع غرب المدينة، موطن لبني مدلج، وخرج إليها رسول الله ﷺ في مائتين من أصحابه، وحمل رايته عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وكان خروجه في جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة،[3] ولم يكره أحداً للخروج معه.

وكان هدف الغزوة عير ضخمة لقريش، جمعت فيها الكثير من أموالها وكانت متوجهة إلى الشام، وقد أورد ابن هشام تفاصيل دقيقة عن طريق الغزوة، وما مر به رسول الله ﷺ من مياه،[4] وقد فاتته ﷺ القافلة، ووصل مناطق بني مدلج وهم حلفاء بني ضمرة فوادعهم ﷺ وقد ورد ذكر الغزوة في صحيح البخاري.[5] ولعل هذه الغزوة متداخلة مع غزوة بواط أو الأبواء مقرونة إحداهما بالأخرى.[6]

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٥٩١، ٥٩٨.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٥٩٨.
(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ١٧٤.
(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٥٩٨.
(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٥٩١.
(٦) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٣٦٢.

غزوة سفوان (بدر الأولى)(١)

عند قدوم الرسول ﷺ من غزوة العشيرة بأيام أغار كرز بن جابر الفهري على المواشي التي تخرج من المدينة للرعي خارجها، وتسمى (سَرحاً)،(٢) ونهبها، فخرج رسول الله سريعاً في أثره ومعه جماعة من المسلمين، وحمل لواءه علي بن أبي طالب، ولحق ﷺ بكرز بن جابر الفهري لكنه فاته، ووصل ﷺ إلى سفوان ناحية بدر ثم رجع إلى المدينة، وقد أسلم كرز بعد ذلك وحسن إسلامه وجاهد مع الرسول ﷺ، واستشهد في فتح مكة.(٣)

وقد ذكرت بعض التفصيلات المرتبطة بها، ومنها ما ورد عن سعد بن أبي وقاص، قال: لما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة جاءت جهينة، فقالت: إنك قد نزلت بين أظهرنا، فأوثق لنا حتى نأمنك وتأمننا، فأوثق لهم ولم يسلموا، فبعثنا رسول الله ﷺ في رجب ولا نكون مائة، وأمرنا أن نغير على حي من كنانة إلى جنب جهينة، قال: فأغرنا عليهم وكانوا كثيراً، فلجأنا إلى جهينة فمنعونا وقالوا: لِمَ تقاتلون في الشهر الحرام؟ فقلنا:

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٦٠١. ابن سعد، ج٢/ ٩، وسفوان واد معروف نواحي بدر.

(٢) السَرح الماشية التي تخرج للمرعى.
الزبيدي، تاج العروس، ج٢/ ١٦٣.

(٣) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج٣/ ٢٩٠.

إنما نقاتل من أخرجنا من البلد الحرام في الشهر الحرام، فقال بعضنا لبعض: ما ترون؟ فقالوا: نأتي رسول الله ﷺ فنخبره، وقال قوم: لا، بل نقيم هاهنا، وقلت أنا في أناس معي: لا بل نأتي عير قريش هذه فنصيبها، فانطلقنا إلى العير وكان الفيء إذ ذاك (من أخذ شيئاً فهو له) فانطلقنا نلي العير، وانطلق أصحابنا إلى النبي عليه الصلاة والسلام فأخبروه الخبر، فقام غضبانَ محمراً لونه ووجهه، فقال: ذهبتم من عندي جميعاً وجئتم متفرقين، إنما أهلكَ من كان قبلكم الفرقة، لأبعثنّ عليكم رجلاً ليس بخيركم، أَصْبَرَكُم على الجوع والعطش، فبعث علينا عبد الله بن جحش الأسدي، فكان أول أمير في الإسلام.[1]

---

(١) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٧٢ ـ ١٧٣؛ وقد ألحق خبر سعد بن أبي وقاص، بعنوان غزوة بدر الأولى.

غزوة بدر (١٧ رمضان سنة ٢هـ)[1]

تعد هذه المعركة أشهر المعارك في التاريخ الإسلامي على الإطلاق، حيث سماها الله سبحانه وتعالى يوم الفرقان، في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال].

وورد أنها المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان].

ومن أسبابها أن رسول الله ﷺ كان يتتبع أخبار قريش

(١) لمزيد من التوسع حول أحداث هذه الغزوة ومروياتها وتخريج تلك الروايات انظر: أحمد محمد العليمي باوزير: مرويات غزوة بدر، الطبعة الأولى، مكتبة طيبة، الرياض ١٤٠٠هـ، ابن أبي شيبة، المغازي، غزوة بدر الكبرى متى كانت، ص١٧٤.

ويتربص بهم، وقد آذوه وأخرجوه وأصحابه من ديارهم، وسطوا على أموالهم وسجنوا بعضهم وعذبوهم، فعلم ﷺ أن عيراً لقريش قد قدمت من الشام في طريقها إلى مكة، وهي بالقرب من المدينة، فندب الرسول ﷺ من كان حاضراً من الصحابة للخروج معه،[1] «وخرج معهم على عجل دون استعداد مسبق، وكان يصحبه ﷺ ((بضعة عشر وثلاثمائة))[2] رجلاً أكثرهم راجلة، ليس معهم سوى فرسين وسبعين بعيراً،[3] كانوا يظنون أنهم سيلقون العير (القافلة) وأنهم لن يلقوا قتالاً، ولذلك فإنهم لم يكونوا مستعدين الاستعداد الكامل للمعركة».

كان قائد قافلة قريش هو أبو سفيان بن حرب، حذراً خائفاً على أموال القافلة التي معه، ولذلك كان يتحسس الأخبار على وجل من المسلمين، فعلم أن الرسول ﷺ قد خرج في طلبه والعير التي معه، فغير الطريق التي كان يسلكها وسار بالعير بالقرب من الساحل في طريق لم يكن المسلمون يتوقعونها، وفي الوقت نفسه أرسل إلى قريش في مكة يستنفرها لتنقذ قافلتها من المسلمين، وخرجت قوات قريش مسرعة لتنقذ العير ـ بزعمها ـ، يترأسها [أبو جهل الحكم بن هشام]، وخرج معه

---

(١) انظر حديث البخاري: (فتح الباري)، ج١٥/١٤٧، وانظر شرح ابن حجر، للحديث، ابن هشام السيرة النبوية، ج٢/٦٠٦.

(٢) من حديث البخاري (فتح الباري)، ج١٥/١٥٦.

(٣) الواقدي: المغازي، ج١/٢٧، ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢/١٢.

كبار رجالات قريش وشجعانها ورؤوس الكفر المعاندون لله ورسوله من أهلها،[(١)] ونجح أبو سفيان في إنقاذ العير من المسلمين، واقترب من مكة وأمن على قافلته، وأرسل مندوباً إلى أهل مكة، يبلغهم بنجاة العير، ويطلب منهم العودة إلى مكة.

ولكن أبا جهل زعيم كفار قريش أصر على التحدي والكبر والخيلاء، وأعلن أنه لن يرجع حتى يَرِدَ ماء بدر، وينحر الإبل ويطعم الطعام ويشرب الخمر، وتعزف القيان، وتسمع العرب بمسيرهم، فتكون هيبة لهم طول الدهر، وهذا ما أشار إليه قوله تـعـالـى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال]، وبالفعل واصلوا مسيرتهم إلى بدر هدفهم المنشود».[(٢)]

وكان أبو جهل يعلم صدق رسول الله ﷺ فقد قال له أصحابه وهو يسير إلى رسول الله ﷺ يوم بدر: «أرأيت مسيرك إلى محمد أتعلم أنه نبي. قال: نعم. ولكن متى كنا تبعاً لعبد مناف.[(٣)]

---

(١) انظر: صحيح البخاري (فتح الباري)، ج١٥/١٤٧، ابن هشام السيرة النبوية، ج٢/٦٠٩؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢/١٣.

(٢) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢/٦١٨، ابن سعد الطبقات الكبرى ج٢/١٣، الواقدي: المغازي ج١/ ٤٢؛ مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٣٤٠.

(٣) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٩٩.

علم ﷺ بتحرك قريش فجمع الصحابة يستشيرهم، وكان ﷺ وهو المعصوم المسدد يستشير أصحابه دائماً لأمور مهمة، منها أمران رئيسان: الأول توحيد صفوف المسلمين وتطييب خواطرهم، وهو أمر مهم جداً، خصوصاً مع الأنصار في هذه المرحلة، وهم أهل الدار، والثاني الوصول إلى القرار الأصوب والأحكم.

وطرح ﷺ الأمر على جموع صحابته المرافقين له قائلاً لهم: ((أشيروا عليّ أيها الناس))، وتكلم جمع من المهاجرين فيهم أبو بكر وعمر رضوان الله عليهما، وكان من المتكلمين المقداد بن عمرو الذي قال: ((يا رسول الله والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝٢٤﴾ [المائدة]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه)).(1) فدعا له الرسول ثم قال مرة أخرى ((أشيروا عليّ أيها الناس))، وكان ﷺ يريد رأي الأنصار فهم أهل الدار، وهم الأكثرية ويريد ﷺ أن يكسب قلوبهم ولا يتصرف إلا بقناعة منهم تحافظ على الصف المسلم، وهذا أول لقاء بين الرسول ﷺ وجنده من

---

(1) انظر: حول هذه المشاورة: ابن هشام السيرة النبوية ج ٢/ ٢١٥، وقارن بحديث البخاري (فتح الباري) ج١٥/ ١٥١.

المهاجرين والأنصار،وبين قريش ورؤوس الكفر فيها، يلوح فيها القتال والموت، فبادر سعد بن معاذ ﵁ يقول: ((لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ فأجاب ﷺ: أجل، فرد سعد بالثناء على رسول الله ﷺ، وذكر لهم أنهم على عهده وقال ((يا رسول الله امض لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً وإنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك،فسر على بركة الله». [(١)]

فسُرّ رسول ﷺ بقول سعد ودعا له وللمهاجرين والأنصار، واطمأن إلى موقف جنده من اللقاء.

فسار ومعه الصحابة، وهو يقول لهم سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين وذلك مصداق لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾ [الأنفال]، وسار الرسول ﷺ ومن معه باتجاه بدر، وهم موقنون أنهم سينالون عير قريش أو جيشها.

ونزل المسلمون قرب بدر وهم يتحسسون الأخبار عن

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ج٢/ ٦١٥، وابن أبي شيبة، المغازي، ص١٧٧؛ وانظر: تخريج هذه الحادثة بالتفصيل عند د. أكرم العمري: السيرة الصحيحة ج٢/ ٣٥٩، د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٣٤١.

الأعداء، وعلم ﷺ أن القوم ما بين التسعمائة إلى الألف، وعرف من في الجيش من صناديد قريش فقال ﷺ: ((هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها))، وتيقن الرسول ﷺ ومن معه أن المواجهة ستكون مع ذات الشوكة شجعان مكة وفرسانها، وأن العير قد فاتتهم.

وجاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله ﷺ، وكان نزول المسلمين أدنى ماء بدر فقال متأدباً مع الرسول يعرض عليه رأياً صائباً ((يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أأنزلكه الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟)) فقال ﷺ: ((بل هو الرأي والحرب والمكيدة)) فقال: ((يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزله ثم نغوِّر ما وراءه من القُلُب ونبني عليه حوضاً ونملؤه ماء فنشرب ولا يشربون))، فدعا له الرسول ﷺ، وقال: لقد أشرت بالرأي». [1] وكان هذا الموقف من الرسول القائد ﷺ درساً عظيماً في استماع القائد إلى رأي جنده، للوصول إلى الموقف الأسلم، واتخاذ الأسباب الدنيوية والمادية مع التوكل على الله، وهو الأساس في كل تحركاته ﷺ.

وكان الرسول ﷺ يُخبر بمصرع عدد من زعماء مشركي

---

(١) من رواية ابن إسحاق، (ابن هشام): السيرة النبوية ج٢/ ٦٢٠، انظر تخريج هذه الحادثة عند د. رزق الله: السيرة النبوية، وقد حكم عليها بأنها رواية حسنة لغيرها ص ٣٤٥.

قريش، ويُري الصحابة الأماكن التي سيُصْرَعون فيها،[1] مما زاد من يقينهم بنصر الله لهم.

وبنى الصحابة عريشاً لرسول الله ﷺ، يخلو فيه بعض الوقت للدعاء والصلاة،[2] مع بقائه في مقدمة الصفوف في القتال فقد كان أشجع الشجعان ﷺ.

وصلت قريش قبل المعركة، فلما أقبلت قال ﷺ: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادُّك وتكذب رسولك فنصرك الذي وعدتني، اللهم إحنهم الغداة.[3]

حاول بعض حُكماء قريش أن يثنوا قومهم عن الحرب ويقنعوهم بالرجوع إلى مكة، لكن أبا جهل وأمثاله من رؤوس الكفر، أفسدوا عليهم وأقنعوا قريشاً بالعناد والمجابهة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.[4]

بات المسلمون ليلة بدر يدعون الله ويتضرعون إليه بالنصر

---

(١) انظر: الواقدي: المغازي، ج١/ ٤٩، ابن هشام السيرة النبوية ج ٢/ ٦١٥، وانظر إلى تخريج ذلك عند د. أكرم العمري: السيرة الصحيحة، ج٢/ ٣٥٩، رزق الله: السيرة النبوية، ص٣٤٤؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص٢٠٦.

(٢) من حديث للبخاري: (فتح الباري) ج ١٨/ ٢٥٤، الواقدي: المغازي ج١/ ٤٩، انظر تخريج ذلك عند د. أكرم العمري، السيرة النبوية، ص٣٤٦.

(٣) الواقدي: المغازي ج١/ ٥٩، انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٨.

(٤) ابن هشام: السيرة ج٢ / ٦٢٢؛ الواقدي: المغازي ج١/ ٦٣.

والفوز على الأعداء، وأنزل الله سكينته عليهم فكانوا هـــادئين وأصـــابهم النعـــاس، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال].

وكان الرسول ﷺ تلك الليلة يصلي ويبكي متضرعاً إلى الله بالدعاء أن ينصر المؤمنين. وكان مما قال في دعائه ﷺ في العريش في تلك الليلة أو من صبيحتها: ((اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً)) فأخذ أبو بكر بيده وقال: حسبك يا رسول الله ألححت على ربك، فخرج وهو في الدرع يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر].(١)

أما مشركو قريش فقد باتوا يأكلون ويشربون الخمر وتعزف لهم القيان، ويفاخرون بقوتهم وما أوتوا من الماديات، ويصرون على كفرهم وشركهم ومعاندتهم لله ورسوله، وكان أبو جهل يدعو على نفسه فيقول: اللهم أقطعُنا للرحم وأتانا بما لا يعرف فاحنه الغداة، فكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۚ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال].(٢)

---

(١) رواه البخاري: (فتح الباري)، ج١٨ / ٢٥٤.

(٢) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٨٤.

وفي صبيحة يوم المعركة صلى المسلمون خلف رسول الله ﷺ، وبعد الصلاة خطبهم وحضهم على القتال والصبر.[1]

ثم أشرف الرسول ﷺ بنفسه على تنظيم صفوف المسلمين وتوجيههم، وكان مما قال لهمﷺ: ((إذا كثبوكم ـ يعني أكثروكم ـ فأرموهم واستبقوا نبلكم))،[2] وكان ﷺ يعجبه الرمي ويحث عليه. وبينما رسول الله ﷺ يسوي الصفوف إذ بـ (سواد بن غُزية) رضي الله عنه[3] قد ند من الصف فيسوسه الرسول ﷺ بسهم كان في يده ويقول له استو يا سواد، فيقول أوجعتني يا رسول الله فدعني أقتد منك، فيكشف له ﷺ عن بطنه الشريف ليقتاد لنفسه، فيُقبل بطن رسول الله ﷺ.. فيقول له الرسول ﷺ: ما حملك على هذا يا سواد؟ فيقول: يا رسول الله قد حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك فدعا له ﷺ.[4]

وانتظر القوم أمر الرسول ﷺ ببدء القتال، ورجع الرسول ﷺ إلى العريش وأخذ يدعو ربه: ((اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، اللهم أنجز لي ما وعدتني))،[5] ولم يزل

---

(١) من رواية لعلي بن أبي طالب، عند ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٨٧.
(٢) من حديث البخاري (فتح الباري) ج١٥/ ١٧٣.
(٣) ابن حجر، الإصابة، ج٢/ ٩٥؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ج٢/ ٣٧٤.
(٤) الواقدي، المغازي، ج١/ ٥٦ ـ ٥٧؛ ابن حجر، الإصابة، ج٢/ ٩٥.
(٥) انظر: ابن حجر (فتح الباري)، ج١٨/ ٢٥٤.

يدعو وبجواره أبو بكر رضي الله عنه حتى أشفق عليه فقال له: يا نبي الله بعض مناشدتك ربك، فإنه منجز لك ما وعدك ثم أغفى إغفاءة ثم قال: أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده،[1] فاستبشر المسلمون بعد أن خرج إليهم ﷺ، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر].[2] وأخذ ﷺ يدعوه ويشجع الناس على القتال ويذكرهم بالجنة ويبشرهم بنزول الملائكة معهم، وهم الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال]، وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ [الأنفال].

وفي الوقت نفسه أعدت قريش صفوفها واستعدت للقتال، ونظر إليهم رسول الله ﷺ عسى أن يكون فيهم أحد ذو عقل، وكان فيهم رجل على جمل أحمر يناقش قومه فقال ﷺ: إن

---

(١) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٨٠.

(٢) انظر: حديث البخاري، في صحيحه، كتاب التفسير، سورة القمر، باب قوله سيهزم الجمع ويولون الدبر، ج٥/ ٥٤؛ ابن حجر، فتح الباري، ج١٦/ ٢٤؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٨٠.

يكن في القوم أحد فعسى أن يكون صاحب الجمل الأحمر فقال حمزة ﷺ: هو عتبة بن ربيعة، كان نهاهم عن القتال ففشل في ذلك.[1]

وقد حاول أحد القرشيين الشرب من الماء مخترقاً صفوف المسلمين، فتصدى له حمزة بن عبد المطلب فقتله.[2]

ثم بدأت أول مبارزة في المعركة بين عتبة بين ربيعة وابن أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة من المشركين، وبين حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث من المسلمين ﷺ وكلهم من آل النبي ﷺ، وانتهت تلك المبارزة بمقتل المشركين الثلاثة وجرح عبيدة بن الحارث ﷺ ثم استشهاده.[3] لقد كان آل البيت أول المقاتلين ومنهم أول الشهداء.

ثم إلتحم الجمعان وبدأت المعركة وأخذ الرسول ﷺ حفنة من الحصى ورماها على القوم وقال ((شاهت الوجوه)).[4] وفي هذا أنزل قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال]، واشتد القتال بين الطرفين، وكان الرسول ﷺ في مقدمة الصفوف حتى أن الصحابة كانوا يحتمون

---

(١) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٨٧.

(٢) ابن هشام السيرة النبوية، ج٢/ ٦٢٤؛ الواقدي: المغازي ج١/ ٦٨.

(٣) انظر: حديث البخاري عن علي بن أبي طالب: (فتح الباري)، ج١٥/ ١٦١.

(٤) ابن هشام السيرة النبوية ج٢/ ٧٠٦.

به ﷺ، وكان لكثير من الصحابة مواقف بطولية في هذه المعركة.

ولاحت بشائر النصر للمسلمين، وانهزم المشركون وقتل صناديد قريش أمثال «أبي جهل»[1] و«عتبة بن ربيعة» و«أمية بن خلف» وغيرهم من كفار قريش الذين بلغ عددهم سبعين رجلاً، وولى الأحياء منهم الأدبار منهزمين لا يلوون على شيء.[2]

«وأقام المسلمون مع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام في بدر بعد المعركة، دفنوا فيها شهداءهم، الذين بلغوا أربعة عشر شهيداً،[3] وأما قتلى المشركين فقد ألقوا في قليب بدر، ووقف عليهم رسول الله ﷺ حتى قام على شفة الركى فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ((يا فلان بن فلان يا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله

---

(١) انظر إلى مقتل أبي جهل من حديث عبد الله بن مسعود عند البخاري (فتح الباري) باب قتل أبي جهل، ج١٥/١٥٨؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٩٨، ١٩٩.

(٢) انظر حديث أنس بن مالك عند البخاري. (فتح الباري)، ج ١٥/ ١٦٧، ابن هشام: السيرة النبوية ج٢/ ٦٣١، ٦٣٤، ٦٣٨، ٦٤٢، (وانظر العنوان الذي وضعه لذلك ص ٧٠٨)، الواقدي: المغازي، ج١/ ٨٢، ٨٥، ٨٨، ٩٢، ١٠٠.

(٣) انظر أسماء شهداء المسلمين في بدر عند: ابن هشام السيرة النبوية ج٢/ ٧٠٦، ٧٠٧، وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٠٤، ٢٠٦.

وانظر: الصبحي، محمد بن عبدالله غبان، شهداء غزوة بدر الكبرى، الجمعية التاريخية السعودية، الرياض، سلسلة بحوث تاريخية الاصدار الخامس عشر، ربيع الأول ١٤٢٤هـ.

ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟)) فقال عمر: يا رسول الله ما تكلِّمُ من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله ﷺ: ((والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم))، قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً وحزناً وندماً». [١]

وقد بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثه على ناقة رسول الله ﷺ مبشراً لأهل المدينة، فوصلها وهم يدفنون رقية بنت رسول الله ﷺ التي توفيت والرسول ﷺ في الغزوة، فسر المسلمون بالخبر واغتاظ اليهود والمنافقون ولم يصدقوه. [٢]

وبعد ذلك عاد الرسول ﷺ ومن معه من المجاهدين إلى المدينة سالماً غانماً فاستقبله المسلمون في المدينة بالسرور العظيم لسلامته ﷺ، ولانتصار المسلمين هذا النصر المبين. [٣]

وكان معهم سبعون من أسرى قريش، وقد استشار ﷺ أصحابه ما يصنع بهم، فقالوا يا رسول الله نأخذ الفداء نتقوى به في سبيل الله، [٤] فقال ﷺ أنتم عالة فلا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق. [٥]

---

(١) البخاري، المغازي، (فتح الباري)، ج ١٥/ ١٦٨.

(٢) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٩٢.

(٣) انظر: ابن هشام السيرة النبوية ج ٢/ ٦٤٣، الواقدي، المغازي ج/ ١٤٤.

(٤) ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٩٣.

(٥) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٩٦.

وقد أحسن المسلمون إلى أسراهم في المعاملة، فكانوا يطعمونهم من أكلهم ويلبسونهم من ملابسهم، وقد قدم أقاربهم من مكة بعد ذلك يدفعون الأموال مقابل إطلاق سراحهم،[1] وقد تأثر هؤلاء الأسرى ببقائهم في المدينة وشهادتهم صدق المسلمين وحسن الإسلام، فأسلم معظمهم في فترات لاحقة.

وقد نزلت بعض الآيات في أحداث غزوة بدر ومنها قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ۝١١ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ۝١٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ

---

(١) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢١٦.

ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنفال].

ويقول الله سبحانه وتعالى عن أحداث هذه الغزوة في موضع آخر من السورة نفسها ﴿۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنفال].

وتواصل بقية سورة الأنفال الحديث عن بعض القضايا المتعلقة بالجهاد عموماً وبغزوة بدر خصوصاً، وأصبحت تلك السورة تسمى سورة الجهاد، وداوم المسلمون على قراءتها في صفوف القتال قبل المعارك في كل غزوات الفتح، وخصوصاً في عهد الراشدين حيث كانوا يعينون القراء في كل جيش لتلاوتها نظراً لأهمية تعلم وقراءة هذه السورة لما فيها من معاني الجهاد وقواعده.[1]

وكانت غزوة بدر هي أول انتصار للمسلمين على مشركي مكة، وقد تناقل العرب أخبارها، وعلم الناس بعدها أن المسلمين أصبحت لهم قوة يحسب لها حسابها.

---

(١) انظر: الأزدي، فتوح الشام، ص ٢١٨؛ الطبري، تاريخه، ج٣/ ٣٤؛ وعبد العزيز العمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ١١٩.

بين بدر وأُحد

غيرت نتائج غزوة بدر الكثير من الأوضاع في حلقة الصراع بين قريش وحلفائها وبين الرسول ﷺ، الذي كان حريصاً على أمن المدينة وأهلها وعلى أن تستمر الأوضاع في صالح المسلمين، كما كان حريصاً على استيعاب رد فعل قريش وغيرها من الأعداء على انتصار المسلمين في بدر، وأن لا يكون هناك تراخٍ أو ضعف. وقد كان واضحاً أن قريشاً لن تسكت على الهزيمة وقتل رجالها وأسرهم، وتطلب هذا الأمر متابعة دائمة من الرسول ﷺ واستمرار الأعمال العسكرية وما يرتبط بها من سرايا وغزوات، لحفظ المدينة وأهلها وأشهر تلك الأعمال بعد غزوة بدر وقبل أحد هي:

غزوة بني قينقاع

كان يهود بني قينقاع ضمن قبائل وجماعات يهودية تقيم

بالمدينة قبل وصول رسول الله ﷺ إليها. وعند هجرته وادعهم مع غيرهم من يهود في صحيفة المدينة،[1] وكان ضمن الموادعة المشاركة في الدفاع عن المدينة المنورة وتأمين أهلها.

وكان يهود يعلمون بصدق رسول الله ﷺ، وتنزلت الكثير من الآيات والسور على رسول الله ﷺ في المدينة تناقش يهوداً وتتحدث عن أنبيائهم وتاريخهم وانحرافهم.

وكان ﷺ كثيراً ما يناقش علماءهم ويزورهم في مدارسهم ويحاول إقناعهم بدين الله، ولم يسلم إلا عدد قليل منهم أعقلهم وأشهرهم عبد الله بن سلام رضي الله عنه.[2]

وبعد غزوة بدر أصبح الأمر واضحاً بتفوق المسلمين على قريش. وهذا يعني قوة المسلمين في المدينة، مصداقاً لوعد الله بنصر عباده المؤمنين، وكان ﷺ رحيماً باليهود حريصاً على هدايتهم، وهم أهل كتاب يعرفون الحق.

وكذلك بعد عودته من غزوة بدر فإن رسول الله ﷺ جمعهم في سوق بني قينقاع، ثم قال: ((يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم إني نبي مرسل، تجدون ذلك وعد الله إليكم)) قالوا: (يا محمدُ، إنك ترى أنّا قومك؟! لا يغرنك أنّك لقيت قوماً لا علم لهم

---

(١) انظر: موضوع وثيقة المدينة من هذا الكتاب.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/ ٣٥٢؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ج٣/ ٢٦٤؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢/ ٤١٣.

بالحرب، فأصبت منهم فُرصة، إنّا ـ والله ـ لئن حاربناك لتعلمن أنا نحنُ الناس).[1]

وفي الوقت الذي كان ﷺ يحمل لبني قينقاع الرحمة والهداية ويذكرهم بما وقع لقريش كانوا يردون عليه بتهديد واضح وصريح واستعداد لقتاله وتلقينه درساً فهم أهل الحرب والرجال ـ كما زعموا ـ وقد ورد عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن الله أنزل فيهم وفي تهديدهم لرسول الله ﷺ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ١٢﴾ [آل عمران].[2]

هذا التهديد الواضح منهم يعد نقضاً صريحاً لعهدهم مع رسول الله ﷺ (فكانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ).[3]

وحدثت واقعة أشعلت العداء بين الطرفين، ذلك أن إمرأة من العرب قدمت بِجَلْبٍ لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت. فوثب رجل من

---

(١) إبراهيم العلي، صحيح السيرة، ص ١٩٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج، حديث رقم ٣٠٠١. انظر سيرة ابن هشام، ج٣/ ٤٧.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٤٧. صالح الشامي، من معين السيرة، ص٢٤٤.

المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.[1]

وقيل إنها نزلت فيهم ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال].[2]

وقد بادر الرسول ﷺ بجمع جند المسلمين وحصار بني قينقاع في حصونهم خمس عشرة ليلة،[3] أنزل الله فيها الرعب في قلوبهم، فاستسلموا لأمر رسول الله ﷺ ونزلوا على حكمه، وكانوا حلفاء لبعض الأنصار، فتبرأ المسلمون منهم، وعلى رأسهم عبادة بن الصامت رضي الله عنه الذي تبرأ إلى الله وإلى رسوله منهم، وخشي المنافقون على يهود وهم مساعدوهم في أذى رسول الله ﷺ، ولذلك قام عبد الله بن أُبي بن سلول، حين أمكن الله منهم رسول الله ﷺ، «فقال: يا محمد، أحسن في مواليَّ، وكانوا حلفاء الخزرج، قال: فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد أحسن في مواليَّ، قال: فأعرض عنه. فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ». قال ابن هشام: وكان يقال لها: ذات الفضول.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٤٨.

(٢) ابن سعد، السيرة من الطبقات، ج٢/ ٢٩.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٤٩.

قال ابن إسحاق: فقال له رسول الله ﷺ: أرسلني، وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظُللاً، ثم قال: ويحك! أرسلني، قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربع مئة حاسر وثلاث مئة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر، قال: فقال رسول الله ﷺ، هُم لك». [1]

وكانت النتيجة العفو عن قتلهم، وهم مستحقون له وإجلائهم عن المدينة، حيث غنم المسلمون أموالهم وديارهم، وتم خروجهم خلال ثلاثة أيام وتوجهوا الى بلاد الشام.

وفي موقف عبد الله بن أُبي نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٤٨.

﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة].

وقد كان إجلاء بني قينقاع ضربة قوية ليهود المدينة، الذين وقفوا عاجزين في هذه المرحلة عن نصرة إخوانهم من يهود حيث ضربهم الله بالذلة والخوف.[١]

كما أن ما غنمه المسلمون من بني قينقاع فيه سلاح كثير وأدوات صياغة وأموال مختلفة، انتفع بها المسلمون، وقد قسمه الرسول ﷺ بين المسلمين واصطفى الخُمُس[٢] واستفاد من سلاحهم في الغزوات التي تلت.

غزوة بني سُليم

بنو سُليم قبيلة تجاور المدينة، مساكنهم في نواحي نجد ويجاورهم غطفان، وقد أعدوا تجمعاً لتهديد المدينة على ماء يقال له الكَدر،[٣] فعلم رسول الله ﷺ بذلك، فخرج إليهم في أواخر شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة بعد عودته من غزوة

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٤٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج١/ ٦٢٨.

(٢) ابن سعد، السيرة من الطبقات، ج٢/ ٢٩؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ٧.

(٣) الكدر: ماء مشهور لبني سليم يقع شرق المدينة على بعد ثمانين بُرداً؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤/ ٤٤١.

بدر، وقد عين أميراً على المدينة عند خروجه، ولما بلغ سُليمَ ومن معهم خروجُ الرسول ﷺ هربوا وتركوا أنعامهم، فظفر بها رسول الله ﷺ ولم يلق كيداً، (١) وعاد إلى المدينة ولم يلق كيداً كبيراً. وكان لهذه الغزوة دور في تحذير مختلف القبائل القريبة من المدينة، وإفهامها يقظة الرسول ﷺ ومن معه من جند الصحابة، وأنهم مستعدون لأي طارئ، ولذلك بادر بهذه الهجمة الاستباقية قبل استعداد أعدائه مما اضطرهم للهرب.

غزوة السويق

كان أبو سفيان بن حرب من زعماء المشركين في مكة، ولم يشاركهم في غزوة بدر لوجوده في القافلة. ولما أصيبت قريش في بدر، وهزمت وجاءت أخبار ذلك لأبي سفيان نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً ﷺ، وينتقم لقتلى قريش وأسراهم في بدر، فخرج في ذي الحجة من السنة الثانية للهجرة، ومعه مائتي مقاتل من قريش، واقترب من المدينة، وتمكن من الوصول إلى «سلام بن مشكم»، وهو من زعماء يهود بني النضير ليلاً، فسقاه ومونه وأعطاه أخبار المدينة ورسول الله ﷺ وأصحابه، ثم خرج من ليلته وبعث بعض أصحابه فقتلوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له، وحرقوا النخيل في أطراف

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٦٤؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٥٣٩.

المدينة، وفروا سريعاً، فلما علم رسول الله ﷺ بهم استعمل على المدينة «أبا لبابة بشير بن عبد المنذر»، وخرج سريعاً في أثرهم ففر أبو سفيان ومن معه إلى مكة، واضطروا للتخلي عن بعض ما يحملونه من طعام وغيره حتى يسرعوا في الفرار، وكان من جملة ذلك سويق كثير،[1] وقد وجدها الرسول ﷺ ومن معه فسميت الغزوة بالسويق.[2]

ولم يتمكن أبو سفيان من تحقيق أهدافه وأثبتت الغزوة أن المسلمين بقيادة الرسول ﷺ بالمرصاد لأعدائهم وأنهم يحمون المدينة من كل معتدٍ ويطاردون من تسول له نفسه أذى المسلمين فيها.

غزوة ذي أَمَرٌ (غطفان)[3]

في شهر محرم من السنة الثالثة للهجرة النبوية. حيث أن جمعاً من غطفان من بني ثعلبة ومن بني محارب أعدوا جمعاً لمهاجمة المدينة، فبلغت الأخبار رسول الله ﷺ فخرج ومعه أربعمائة وخمسون مقاتلاً وتوجه إلى تجمع القبائل المعادية،

(١) السويق: طعام من الشعير أو الحنطة المحموسة، تؤكل جافة أو تطبخ مع الماء، أو الزيت، ولا يزال معروفاً في الحجاز وغيرها بهذا الاسم.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣؛ الواقدي، المغازي، ج١/ ١٨١؛ ابن سعد، الطبقات، ج٢/ ٣٠.

(٣) ماء ناحية نجد في ديار غطفان، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١/ ٢٥٢.

فهربوا في رؤوس الجبال، فأقام الرسول ﷺ في نواحيهم قريباً من الشهر على ماء يقال له ذو أمر وعسكر مع أصحابه، وغطفان فارِّين في رؤوس الجبال.

فبعث المشركون رجلاً شجاعاً منهم يقال له «غَوْرث بن الحارث» أو دُعْثور بن الحارث فقالوا: قد أمْكَنك الله مِن قَتْل محمد. فذهب ذلك الرجل ومعه سيف صقيل، حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف مشهوراً، فقال: يا محمد ما يمنعك مني اليوم؟ قال: الله. ودفع جبريل في صدره فوقع السيف من يده. فأخذه رسول الله ﷺ، فقال: من يَمْنعك منِّي؟ قال: لا أحدَ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والله لا أكثر عليك جمعاً أبداً، فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه.[1]

فلما رجع إلى أصحابه قالوا: ويلك، مالك؟ قال: نظرتُ إلى رجل طويل فدفع في صدري فوقعت لظهري فعرفت أنه مَلَك، وشهدت أن محمداً رسول الله ﷺ، والله لا أُكثِّر عليه جمعاً، وجعل يدعو قومَه إلى الإسلام.

قال: ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

---

(١) الواقدي، المغازي، ج١/ ٩٤؛ ابن سعد الطبقات، ج٢/ ٣٤؛ ابن حجر، الإصابة، ج٣/ ١٨٩.

[المائدة]. (١) وقد ورد أن الآيات نزلت في بني النضير حين هموا بقتل الرسول ﷺ.

غزوة بُحْرَان(٢)

استعد جمع من سُليم لمهاجمة المدينة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج في جيش من أصحابه قوامه ثلاثمائة مقاتل، فتوجه إلى تجمع سُليم في بُحران من نواحي الفرع بالقرب من المدينة، ففروا وتفرقوا قبل أن يصلهم النبي ﷺ.

فعسكر أياماً في مناطقهم، ثم عاد إلى المدينة مرة أخرى،(٣) بعد أن أثبت للأعداء حزمه وقوته في مواجهتهم وحفظ هيبة المسلمين، وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٣هـ.

وفي ترتيب الغزوات السابقة وضع البخاري في صحيحه باباً سماه باب غزوة العشيرة أورد فيه قول ابن إسحاق: أول ما غزا النبي ﷺ الأبواء ثم بواط ثم العشيرة. (٤)

---

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن، ج١/ ٥٩٥.
(٢) بُحْرَان: ماء على طريق مكة إلى الشام، ناحية الفرع، بين المدينة ورابغ، البلاذري، معجم معالم السيرة، ص ٤٠.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٤٥؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ٤؛ انظر: صالح الشامي، من معين السيرة، ص ٢٤٣.
(٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب١ ج ٥/ ٢.

سرية زيد بن حارثة (القَرَدَة)[1]

كان من سياسة رسول الله ﷺ الاستمرار في حرب اقتصاديات مشركي مكة وتهديد قوافلهم والتعرض لها مما جعل قريشاً تغير طريقها إلى الشام،[2] وتحاول التوجه إلى العراق عن طريق نجد، ومن هناك إلى الشام فخرجت إحدى قوافلها في شهر جمادى الآخرة من السنة الثالثة للهجرة، فيها أبو سفيان ابن حرب،[3] وصفوان بن أمية، وعبد الله بن أبي ربيعة،[4] وغيرهم من زعماء قريش.

وكانت معهم أموال عظيمة من الفضة والأواني والسلع وأخذوا طريق نجد قاصدين العراق.

فكوَّن ﷺ جيشاً عين عليه صاحبه ومولاه زيد بن حارثة وبعثه للحاق بالقافلة متوجهاً إلى ناحية الربذة،[5] من أرض نجد

---

(١) القَرَدة: في أطراف نجد ناحية المدينة من أطراف القصيم الغربية ناحية الرمة، (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤/ ٣٢٢).

(٢) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٥٠.

(٣) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٥٠.

(٤) ابن سعد، السيرة النبوية، من الطبقات الكبرى، ج٢/ ٣٦.

(٥) الرَبَذَة: في أطراف نجد ناحية المدينة من أطراف القصيم الغربية حالياً شمال مهد الذهب حالياً، البلادي، معجم المعالم الجغرافية في السيرة، ص١٣٥.
انظر كتاب: الربذة صورة للحضارة الإسلامية المبكرة في المدينة المنورة تأليف: دكتور الآثار سعد بن عبد العزيز الراشد ط١؛ الرياض: جامعة الملك سعود سنة: ١٤٠٦هـ.

واعترضوهم عند القَرَدة، فأصابوا العير وغنموها وما فيها، وفر الرجال هاربين إلى مكة، وقدم زيد ومن معه بالعير على رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ في مصارفه، وقدرت القيمة بما يقارب المائة ألف درهم.[1]

وقد استفاد منها المسلمون كثيراً، وقد أُسر في الغزوة فُراتُ ابن حيان العجلي دليل القافلة، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام فأسلم.[2]

(١) ابن سعد، السيرة النبوية، من الطبقات الكبرى، ج٢/ ٣٦؛
وانظر: مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٣٧٧.
(٢) ابن سعد، السيرة النبوية، من الطبقات الكبرى، ج٢/ ٣٦.

زواج علي وفاطمة (رضي الله عنهما)(١)

فاطمة بنت رسول الله، قال عنها ﷺ: ((فاطمة سيدة نساء أهل الجنة))،(٢) وقال عنها ﷺ: ((فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني)).(٣)

كانت أصغر بنات النبي ﷺ وأحبهن إليه مع حبه ﷺ للجميع منهن (رضوان الله عليهن)، فهي الوحيدة الباقية من بنات النبي آخر حياته وأقرب الناس إليه، وبقيت من بعده بضعة أشهر، وروت عنه أحاديث، ولذلك تعلقت أذهان الأمة بها أكثر من غيرها من بنات الرسول ﷺ، كما أن انقطاع نسل الرسول ﷺ إلا من فاطمة جعلها أكثر ذِكراً من غيرها.

---

(١) وضع البخاري في صحيحه، باب منقبة فاطمة (رضي الله عنها)، ج٥/ ٢٠٩؛ ووضع ابن إسحاق، في السيرة عنوان زواج فاطمة (رضي الله عنها)، ص٢٣٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، ج٤/ ٢٠٩.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، ج٤/ ٢١٠.

ولدت (رضي الله عنها) قبل البعثة بحوالى سنتين،[1] كانت ممن يدافع عن الرسول ﷺ في مكة عند أذى قومه له، حملت سِلَىٰ الجزور الذي طرحه القوم على رأسه وسبتهم وأبعدتهم عن رسول الله ﷺ.[2]

وردت روايات مناقب فاطمة عن أم المؤمنين عائشة في أحاديث متفرقة وكانت عائشة تقول: (ما رأيت أحداً قط أفضل من فاطمة غير أبيها).[3]

وكذلك ما روته عائشة (رضي الله عنها): (أن فاطمة أقبلت تمشي كأن مشيها مشي رسول الله ﷺ، فقال مرحباً يا بنتي، ثم أجلسها عن يمينه، ثم أسرَّ إليها حديثاً فبكت، ثم أسرَّ إليها حديثاً فضحكت، فقلت: ما رأيت كاليوم أقرب فرحاً من حزن، فسألتها عما قال؟ فقالت: ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سره فلما مات سألتها؟ فأخبرتني أنه قال: إن جبريل كان يعارض القرآن في كل سنة مرة، وأنه عارضني العام مرتين، وما أراه إلا قد حضر أجلي، وإنك أول أهلي لحوقاً بي ونعم السلف أنا لك، فبكت فقال: ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين فضحكت).[4]

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢/ ١١٨؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٨/ ١٩؛ ابن حجر، الإصابة، ج٤/ ٣٧٧.

(٢) انظر: تخريج الحديث بطوله في وفاة النبي ﷺ من هذا الكتاب.

(٣) ابن حجر، الإصابة، ج٤/ ٣٧٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب من ناجى بين يدي الناس، ولم يخبر بسر صاحبه، ج٧/ ١٤؛ كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ج٥/ ١٣٨؛ وانظر: ابن حجر، الإصابة، ج٤/ ٣٧٨.

وقد لحقت فاطمة برسول الله ﷺ مهاجرة إلى المدينة وكانت شابة.(١)

وكان علي رضي الله عنه شاباً هاجر مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وهو أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ نسباً وروحاً وإيماناً، وقد تربى في بيت رسول الله ﷺ، وكان أول المؤمنين به من الشباب، وأعرف الناس بصدقه، فداه بنفسه يوم الهجرة، له من المكانة عند رسول الله ﷺ وعند المسلمين ما ليس لأحد غيره.

وفي محرم من السنة الثانية للهجرة، كان علي رضي الله عنه يرغب في خطبة فاطمة من رسول الله ﷺ، إلا أنه كان حيياً ويهاب الرسول ﷺ، إضافة إلى كونه شاباً لا تجربة له في مثل هذا الأمر.

وقد حاول بعض الصحابة خطبة فاطمة (رضي الله عنها)، إلا أن الرسول ﷺ ردهم بلطف، وكأنه ينتظر أن يتقدم علي رضي الله عنه لخطبتها، وقد شجعت علي رضي الله عنه بعض جواري الأنصار على ذلك.(٢)

قال علي رضي الله عنه: (فلما قعدت بين يديه أفحمت فوالله ما

---

(١) انظر: ترجمتها رضي الله عنها، عند ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١/١٩؛ ابن حجر، الإصابة، ج١/٣٧٨؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢/١١٨.
(وراجع ترجمتها في المعايشون للنبي ﷺ من هذا الكتاب).

(٢) انظر: ابن سعد، الطبقات، ج٨/١٩؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/٥٤٤.

أستطيع أن أتكلم فقال: ما جاء بك؟ فسكت، فقال: لعلك جئت تخطب فاطمة؟ قلت: نعم، قال: وهل عندك من شيء تستحلها به؟ فقلت: لا والله يا رسول الله، فقال: ما فعلت بالدرع التي سَلّحْتُكَها، فقلت: هي عندي قال: فأعطها إياه).[1]

وقيل إن رسول الله ﷺ دخل على فاطمة وأخبرها بطلب علي فسكتت، فعلم ﷺ أن ذلك إقرارٌ منها.

وقد كان زواجاً بسيطاً متواضعاً أنفق فيه علي رضي الله عنه مما يجد.

وقد ورد أنه حامَلَ وجلب حطباً لأحد صَوَّاغي المدينة، يقول علي رضي الله عنه: (لما أردت أن ابتني بفاطمة بنت رسول الله ﷺ واعدت رجلاً صوّاغاً من بني قينقاع أن يرتحل معي فنأتي بأذخر أردت أن أبيعه من الصوّاغين واستعين به في وليمة عرسي).[2] وقد ساهم بعض الأنصار والمهاجرين في هذه الوليمة المتواضعة المباركة.

وقد جهزها رسول الله ﷺ بجهاز بسيط وجرتين للماء،[3] وقد ورد أنه ﷺ قال لعلي ليلة دخلته بفاطمة: ((لا تحدث شيئاً حتى تلقاني))، فدعا بماء فتوضأ منه ثم أفرغه عليهما، وقال ((اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما في نسلهما)).[4]

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ج٨/ ٢١؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٥٤٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ما قيل في الصواغ، ج٣/ ١٣.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج٨/ ٢٣.

(٤) انظر: ابن سعد، الطبقات، ج٨/ ٢٤.

وقد حرص الرسول ﷺ أن يَسكُن فاطمة وعلي رضي الله عنه بجواره، وقد علم حارثة بن النعمان الأنصاري بذلك، فتحول عن حجرة له مجاورة لمسجد الرسول ﷺ تقع شمال حجرة عائشة، وطلب من الرسول ﷺ أن يأخذها لعلي وفاطمة وقال: والله الذي يأخذ أحب إلي من الذي يدع، قال ﷺ صدقت، فتحول وسكن علي وفاطمة مكانه. فكانا مجاورين لرسول الله يمر عليهما ويستأنس بهما ويدعو لهما ويوجههما.(١)

وقد رويت أحاديث كثيرة عن هذه الزيارات المباركة للبيت المبارك الذي خرج منه سيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين (رضي الله عنهما) وأم كلثوم وزينب بنات علي من فاطمة رضي الله عنهم.(٢)

وقد كانت (رضي الله عنها) تعيش مع علي رضي الله عنه في شظف من العيش وشدة منه، ولم تكن الدنيا همهما، ومع ذلك كانا يتألمان من كثرة العمل، وقد ورد عند أحمد في مسنده (قال علي لفاطمة ذات يوم: والله لقد سَنَوْتُ حتى لقد اشتكيت

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ج٣/ ٤٨٨؛ والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢/ ٣٨٠.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢/ ١٣٤، ١٢٢؛ وانظر: الحديث عن الحسن والحسين (رضي الله عنهما)، في موضوع المعايشون للرسول ﷺ من هذا الكتاب.

ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٥٤٤؛ وانظر: تفصيل الحديث عن فاطمة (رضي الله عنها)، في موضوع المعايشون للرسول ﷺ من هذا الكتاب.

صدري، قال: وجاء الله أباك يسبي فاذهبي فاستخدميه. فقالت: أنا والله قد طحنت حتى محلت يدي: فأتيت النبي ﷺ فقال: ((ما جاء بك أي بنية؟)) قالت: جئت لأسلم عليك واستحييت أن أسأله. فأتينا جميعاً. فقال علي: يا رسول الله. والله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقالت فاطمة: قد طحنت حتى محلت يداي وقد جاءك الله بسبي وسعة فأخدمنا، فقال رسول الله ﷺ: ((والله لا أعطيكما وأدع أهل الصّفّة تطوي بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم))،[١] فرجعا. فأتاهما النبي ﷺ وقد دخلا في قطيفتهما إذا غطت رأسيهما تكشفت أقدامهما، وإذا غطيا أقدامهما تكشفت رأساهما، فثارا، فقال: (مكانكما). ثم قال: ((ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟)) قالا: بلى فقال: ((كلمات علمنيهنّ جبريل عليه السلام فقال: تسبّحان في دبُرُ كل صلاة عشراً، وتحمدان عشراً، وتكبران عشراً، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبّحا ثلاثاً وثلاثين واحمدا ثلاثاً وثلاثين وكبّرا أربعاً وثلاثين)).[٢]

وكغيرهما من البشر يحدث بينهما أحياناً ما يحدث بين الأزواج، فكان الرسول ﷺ يصلح بينهما، حتى أن علياً رضي الله عنه قال لها: والله لا آتي شيئاً تكرهينه. روى ابن حجر قال: كان بين علي وفاطمة (رضي الله عنهما) كلام، فدخل رسول الله ﷺ فلم

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ج٨/ ٢٥.

(٢) المصدر السابق.

يزل حتى أصلح بينهما، ثم خرج فقيل له: دخلت وأنت على حال وخرجت ونحن نرى البِشْر في وجهك، فقال: ((وما يمنعني وقد أصلحت بين أحب اثنين إليَّ)).[١]

وقد ورد عن أم سلمة أنها قالت: «في بيتي نزلت ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣)﴾ [الأحزاب].

قالت: فأرسل رسول الله ﷺ إلى فاطمة وعلي والحسن والحسين رضي الله عنهم فقال: «هؤلاء أهل بيتي».[٢] ومع هذا فالآية في عامة أهل البيت ومنهن أمهات المؤمنين، اللاتي بدأت الآية بالحديث عنهن، ولا يعقل أن يُجزِّئ الكارهون لأمات المؤمنات الآية ويرونها خاصة في علي وفاطمة وأبنائهما رضي الله عنهم أجمعين، فإثباتهم لا ينفي غيرهم، فزوجات النبي من أهل البيت كغيره من الناس فلا تخرج الزوجات من الآية، فالآية نصت في أولها عليهن، بل هي موجهه لهن.

ولعل عمل رسول الله ﷺ مع علي وفاطمة وابنيهما رضي الله عنهم ليقطع الطريق على المشككين في دخولهم ضمن أهل البيت وإلا فالآية أثبتت أن نساءه ﷺ منهم.

---

(١) ابن حجر، الإصابة، ج٤/ ٣٧٩؛ وابن سعد، الطبقات، ج٨/ ٢٦.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج٢/ ١٤٩٧.

غزوة أُحد (شوال سنة ٣ هـ)[١]

لم تسكت قريش بعد هزيمتها في بدر، فأخذت تعد العدة لغزو المسلمين في المدينة، وقام أعداء الإسلام كل منهم بدوره، فالذين قُتل آباؤهم أو أبناؤهم أو أحد من أهليهم كانوا يسيرون في الناس ليحرضوهم على رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين،[٢] وكان اليهود يدورون في مكة ويشتركون في تحريض زعمائها، والمنافقون في المدينة يعدون قريشاً ويمنونهم بالمساعدة إن قدموا لاستئصال محمد ومن معه من المسلمين ويتحملون الإعداد المعنوي والمادي لذلك، وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

(١) ابن إسحق السيرة، ص ٣٠١، ابن هشام، ج٣/ ٦٠.
وانظر: بامدحج، غزوة أحد «دراسة دعوية»، ط١، دار اشبيليا، الرياض١٤٢٠هـ.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٤٧٣.

فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ [الأنفال]. (١)

وتم استعداد قريش ومن حالفها من قبائل تهامة وغيرهم، وتوجه جيشها بحديده ورجاله وعبيده، وبعض نسائه يقصدون المدينة، وقد بلغ عددهم ما يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل. (٢)

في هذه الأثناء كانت الأخبار تأتي لرسول الله ﷺ من عيونه في مكة عن تحركات القوم بالتفصيل. (٣)

جمع الرسول ﷺ المسلمين واستشارهم في الأمر كعادته، واختلفت آراؤهم، فمنهم من رأى الخروج للقاء الأعداء خارج المدينة وكانوا الأكثرية، ومنهم من رأى البقاء في المدينة، وقتال المشركين من داخلها إن هم قدموها، وكان الرسول ﷺ يميل إلى الرأي الثاني وهو البقاء داخل المدينة. (٤) وكان أصحاب الرأي القائل بالخروج للقاء القوم من شجعان المسلمين وأكثروا على الرسول ﷺ، فدخل داره ثم خرج إليهم وقد لبس درعه

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٦٠، الواقدي: المغازي ج١/ ١٩٩، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، ج ٤/ ٢٧١.

(٢) ابن إسحق: السيرة، ص ٣٠٢، الواقدي، المغازي، ج١/ ٢٠٢، ٢٠٣؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٢٧٣.

(٣) الواقدي، المغازي، ج١/ ٢٠٧، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢/ ٣٧، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٢٧٣.

(٤) ابن إسحق، السيرة، ص ٣٠٢، الواقدي المغازي، ج١/ ٣١٠ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٢٧٥.

وسلاحه واستعد للقتال، فندم الذين أكثروا على الرسول ﷺ بالخروج، وقالوا: يا رسول الله استكرهناك ولم يكن لنا ذلك فإن شئت فأقعد. فقال ﷺ: ((ليس لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل)).[1]

كان ﷺ قد رأى رؤيا قصها على أصحابه، ومنها كما روى البخاري قوله: ((رأيت في رؤياي هذه أني هززت سيفاً فانقطع صدره فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أُحُدُ. ثم هززته بآخر فعاد أحسن ما كان فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها بقرًا والله!! خير فإذا هم المؤمنون يوم أحد)).[2]

وكانت قريش قد نزلت أَحَدَ الأودية بالقرب من المدينة فخرج الرسول ﷺ ومعه ألف من أهل المدينة، وفي الطريق إلى أُحُد رجع زعيم المنافقين عبد الله بن أُبي سلول، ومعه ثلث الجيش خاذلين لرسول الله ﷺ، وزعم ابن أُبي أنه ما فعل ذلك إلا لأنه كان يرى البقاء في المدينة ومضى المؤمنون مع رسول الله ﷺ.[3]

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل، المسند، ج٣/ ٣٥١، وانظر: تخريج الحديث عند رزق الله السيرة النبوية، في ضوء المصادر الأصلية، ص ٣٨١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب من قتل من المسلمين يوم أحد، ج٥/ ٣٩؛ وانظر: الروايات الأخرى عند الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٢٧٤؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٤٢.

(٣) الواقدي، المغازي، ج١/ ٢١٩، ابن سعد، الطبقات، ج٢/ ٣٩، وانظر: البخاري، فتح الباري، ج١٥/ ٢٣٢.

كانت أُحُد منزل رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين، واختار الرسول الموقع بنفسه، ونظم صفوف المسلمين فيه، حيث جعل مركز الجيش الشِّعب، وجعل جبل أُحُد من خلفهم، واختار جبلاً صغيرًا أمام القوم وعين فيه الرماة وأمّر عليهم عبدالله بن جبير رضي الله عنه وأوصاهم أن يثبتوا في مكانهم، حتى يأتيهم أمر الرسول ﷺ. وأن ينضحوا المشركين عن المسلمين بالنبل، حتى لا يأتوهم من الخلف. وأوصاهم بالثبات مهما كانت نتيجة المعركة وانتظار ما يصدر لهم من أوامر الرسول ﷺ. روى البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (لقينا المشركين يومئذ وأَجْلَسَ النبيّ ﷺ جيشًا من الرماة، وأمّر عليهم عبد الله، وقال: لا تبرحوا، وإن رأيتمونا ظَهَرْنَا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا). الحديث.(1)

واختار الرسول ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه لحمل لواء المسلمين، وتولى ﷺ ترتيب صفوف أصحابه المجاهدين معه، وذكرهم بموعود الله من الجنة، وبالصبر والثبات عند اللقاء، ثم رد بعض الصغار إلى المدينة.(2)

---

(1) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزو أحد، ج٥/ ٣١؛ ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص ٣٠٥؛ الواقدي، المغازي، ج١/ ٢١٩؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٢٨٢.

(2) ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص ٢٠٣، ٣٠٨.

الواقدي، المغازي، ج١/ ٢٢١، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٢٨٢، ٢٨٣.

ومن جهة المشركين قام زعيمهم أبو سفيان بن حرب ﵁ بتعبئة المقاتلين، وكانوا قرابة ثلاثة آلاف مقاتل أكثر من أربعة أضعاف المسلمين، وقسمهم، وجعل على الميمنة خالد بن الوليد ﵁ وأخذ ذوو الصيت والصوت منهم يحرضون الناس على القتال واستئصال محمد ﷺ ومن معه من المسلمين، وقامت نساء قريش بتحريض الرجال على القتال، وذكرنهم بمن قتل من أهلهم في بدر العام الماضي.[١]

بدأت المعركة وقد أخذ كل موقعه، وأخرج الرسول ﷺ سيفًا كان معه فقال من يأخذ هذا بحقه، فقام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة ﵁ وقال: يا رسول الله وما حقه؟ فقال ﷺ: أن تضرب به هام المشركين حتى ينحني، فأخذه أبو دجانة، وأخرج من جيبه عصابة حمراء فربطها على رأسه وأخذ يختال بالسيف، فقال ﷺ: ((إن هذه مشية يبغضها الله ورسوله إلا في مثل هذا الموطن)).[٢] وبدأ القتال، وقاتل أبو دجانة بسيف رسول الله ﷺ قتال الأبطال،[٣] كما قاتل حمزة ﵁ بشجاعة لا نظير لها، وقاتل غيرهم من شجعان المسلمين، حتى لاحت

(١) ابن إسحاق، السيرة، ص ٣٠٦؛ الواقدي، المغازي، ج١/ ٢٢٠، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/ ٤١، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٢٨٣.

(٢) انظر ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٣٦.

(٣) ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص ٣٠٥، الواقدي، ج ١/ ٢٤١، وانظر: ابن حجر، الإصابة، ج ٤/ ٥٨.

الهزيمة في صفوف المشركين، وبدا النصر واضحًا للمؤمنين، وولى المشركون من الميدان، وتبعهم المسلمون يقتلون منهم، وأخذ المسلمون يجمعون الغنائم، فلما رأى الرماة ذلك من على الجبال تحركوا من أماكنهم، وحاول عبد الله بن جبير ﵁ أن يمنعهم من المغادرة مذكرًا إياهم بأمر الرسول ﷺ، ولكنهم عصوه وانصرفوا ولم يثبت معه إلا نفر يسير دون العشرة.(١)

كان خالد بن الوليد ﵁ ومعه جماعة من فرسان قريش يرقبون الموقف عن كثب، فلما رأى خالد أن الرماة قلة لا يستطيعون منع الخيل حمل عليهم فقتلهم وقائدهم، ثم نزل بالفرسان إلى المسلمين، وهم مكشوفون فأتوهم من الخلف، ورجع جند قريش إلى ساحة المعركة بمساعدة الفرسان، وتغير مسير القتال وأصبح في صالح مشركي قريش.(٢)

وحاولوا أن يصلوا إلى رسول الله ﷺ شخصيًا ليقتلوه، وتبارى في ذلك شجعانهم.

وصمد رسول الله ﷺ وقاتل قتال الأبطال، وقتل بيده (أُبي ابن خلف) الذي كان معاندًا وحريصًا على قتل الرسول ﷺ ويردد: محمد...!! لا نجوت إن نجا، فرفض الرسول ﷺ أن

---

(١) انظر: البخاري (فتح الباري)، ج ١٥/ ٢٢٥؛ ابن إسحاق، السيرة ص٣٠٦، الواقدي، المغازي، ج ١/ ٢٢٩.

(٢) البخاري (فتح الباري)، ج١٥/ ٢٢٥، ابن إسحاق، السيرة، ص ٣٠٧، الواقدي، المغازي، ج١/ ٢٣٥، ابن سعد، الطبقات، ج ٢/ ٤١.

يبادر إليه أحد من الصحابة غيره، حيث واجهه ﷺ بنفسه بحربة أصابته في عنقه فمات منها فيما بعد.[١]

ثم إنه ﷺ وقع في إحدى الحفر فشج رأسه وكسرت رباعيته وشُقت شفته.[٢] وصمد نفر من الصحابة مع رسول الله ﷺ واستماتوا في الدفاع عنه، منهم أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه، وسهل بن حنيف، ومنهم مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين ـ الذي استشهد بين يدي النبي ﷺ ـ، ومنهم علي بن أبي طالب وأبو دجانة وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم أجمعين، حيث قال رسول الله ﷺ لسعد وهو يرمي دفاعًا عنه: ((ارم فداك أبي وأمي)).[٣] كما كان معهم في الدفاع عن الرسول ﷺ أم عمارة (رضي الله عنها).[٤]

وأشاع المشركون أنهم قتلوا رسول الله ﷺ، فَفَتَّ ذلك في عضد المسلمين فقام الصحابي أنس بن النضر رضي الله عنه فقال: ما

---

(١) ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص٣١٠، الواقدي، المغازي، ج٢/ ٢٥٢، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٤/ ٣٠٧، ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٣٩.

(٢) انظر: صحيح البخاري (فتح الباري)، ج١٥/ ٢٤٣، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص ٣١١، الواقدي، المغازي، ج١/ ٢٤٧؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٣١٠؛ انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص٢٤٥.

(٣) البخاري، فتح الباري، ج١٥/ ٢٢٥؛ انظر: ابن أبي شيبة، ص ٢٣٨.

(٤) انظر: صحيح البخاري (فتح الباري)، ج١٥/ ٢٣٥، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص ٣٠٧، الواقدي، المغازي، ج١/ ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٧٨.

يُجْلِسُكُمْ؟ قالوا: قتل محمد رسول الله قال: فما تصنعون بالحياة بعد قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه، فوجد به يومئذ سبعون طعنة فما عرفه إلا أخته ببنانه.(١)

واستشهد جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ وصل عددهم إلى السبعين رجلاً، منهم عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، قتله وحشي وهو غلام حبشي،(٢) وسعد بن الربيع،(٣) ومصعب بن عمير،(٤) وعبد الله بن جحش،(٥) وحنظلة الغسيل وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين. والتجأ الرسول ﷺ ومن معه، من الصحابة إلى الشِّعب، وعلا أبو سفيان الجبل على الرسول ﷺ ومن معه، فقال رسول الله ﷺ: اللهم لا ينبغي لهم أن يعلونا، فقاتل عمر ابن الخطاب وبعض الصحابة ورموهم بالحجارة حتى أنزلوهم، فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد؟ فقال ﷺ لا تجيبوه، ثم قال أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثم قال: أفي القوم عمر بن

---

(١) ابن إسحق، السيرة النبوية، ص ٣٠٩، الطبري، تاريخه، ج٣ / ١٨.

(٢) انظر: باب مقتل حمزة عند البخاري (فتح الباري)، ج١٥/ ٢٤٥، ابن إسحق، السيرة النبوية، ص ٣٠٨ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤ / ٣١٨، ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٤١.

(٣) الواقدي، المغازي، ج١/ ٢٩٣، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٣٢٦.

(٤) انظر: البخاري (فتح الباري)، ج ١٥/ ٢٢٩.

(٥) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٤/ ٣٢٢.

الخطاب؟ . . . . ثم قال أبو سفيان إن هؤلاء قد قتلوا ولو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يتمالك عمر بن الخطاب ﷺ نفسه فقال: كذبت يا عدو الله أبقى الله لك ما يخزيك، ثم قال أبو سفيان: أُعلُ هُبَلْ، فقال ﷺ أجيبوه قالوا ما نقول. قال: قولوا الله أعلى وأجل، فقال أبو سفيان: لنا العُزَّى ولا عُزّى لكم، فقال ﷺ أجيبوه قال، ما نقول؟ قال: قولوا الله مولانا ولا مولى لكم. ثم قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر فأجابوه، وقالوا: لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، ثم قال أبو سفيان : إن موعدكم بدر العام القادم.(١)

وقد شاركت نساء المسلمين في المعركة: (كن النساء يوم أحد يجهزن على الجرحى، ويسقين الماء ويداوين الجرحى).(٢)

وغادرت قريش أرض المعركة، بعد أن هلك منهم أربعة وعشرون قتيلاً، وداوى المسلمون جرحاهم، وفيهم رسول الله ﷺ، وصلى الرسول ﷺ على الشهداء الذين بلغوا سبعين شهيدًا ودفنوهم.(٣)

---

(١) انظر: صحيح البخاري (فتح الباري)، ج١٥/ ٢٢٧، ابن إسحاق، السيرة، ص ٣١٣، الواقدي المغازي، ج١/ ٢٩٧، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٣٢٥.

(٢) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٣٢.

(٣) انظر: البخاري (فتح الباري)، ج١٥/ ٢٢٥؛ ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص٣١٣؛ الواقدي، المغازي، ج١/ ٣٠١، ٣١٠، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٣٣٠، ابن أبي شيبة، المغازي، ص٢٣٩.

ثم رجع الرسول ﷺ ومن معه إلى المدينة ودخلوها والنساء تبكي القتلى، فتأثر رسول الله ﷺ وذرفت عيناه.[1]

وكان ﷺ حذرًا فخشي من عودة قريش إلى المدينة، فخرج عليهم في اليوم التالي لطلب العدو وإرهابه حتى لا يعود إلى المدينة، وقال ﷺ: ((لا يخرج معنا إلا من حضر معنا بالأمس)).[2]

ووصل المسلمون إلى حمراء الأسد،[3] على مسيرة عشرة أميال من المدينة، وبقوا فيها ما يزيد على ثلاثة أيام، ووصلت أخبارهم إلى قريش، وكانوا فد فكروا بالعودة للهجوم على المدينة مرة أخرى وثناهم عن ذلك تتبع الرسول ﷺ لهم، وجعلهم يسرعون بالعودة إلى مكة.[4]

وقد نزلت آيات من القرآن الكريم تتحدث عما جرى على المسلمين في أحد ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ

---

(١) انظر: الواقدي، المغازي، ج١/ ٣١١، ٣١٥، ٣١٦، ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٩٨، ابن حجر: (فتح الباري) ج١٥/ ٢٥٥، ٢٥٦، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٣٣٤.

(٢) انظر: البخاري (فتح الباري)، ج١٥/ ٢٥٣، (وانظر شرح ابن حجر على الحديث)، الواقدي، المغازي، ج١/ ٣٣٤، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/ ٤٨، ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ١٠١.

(٣) منطقة جنوب غرب المدينة أصبحت حياً من أحياء المدينة حالياً.

(٤) انظر: البخاري (فتح الباري)، ج١٥/ ٢٥٣، (وانظر: شرح ابن حجر على الحديث) الواقدي، المغازي، ج١/ ٣٣٤، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٣/ ١٠٤، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٤٣٨ ـ ٤٤٢، ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٥٢.

وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ
وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا
وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا
عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا
تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا
بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ
بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ
مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ
يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ
أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ
قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ
ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ
﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾﴾
[آل عمران].

ثم يقول الله سبحانه وتعالى في موضع آخر من السورة
نفسها: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ
مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى
ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ
قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ
يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ
بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ

عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ
أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ
لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ
قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ
﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ
وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾[آل عمران].

وهكذا كانت هذه الغزوة ابتلاء لصف المؤمنين وتمحيصًا اختار الله فيها بعض الشهداء وفضح فيها المنافقين، وتاب على المؤمنين، فكانت من أهم غزوات الرسول ﷺ، شهدها بنفسه وأصابه وأصاب المؤمنين الكثير من الجراح والبلاء، واختار الله فيها أكبر عدد من الشهداء في حياة المصطفى ﷺ.

أصحاب الرجيع(١)

الرجيع اسم موضع من بلاد هُذيل بين مكة

(١) انظر: عنوان غزوة بني لحيان، عند ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٩٥؛ وصحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع، ورعل وذكوان، ج٥/ ٤٠. (والرجيع ماء لهذيل بناحية الوطية اليوم على نحو سبعين كيلومتراً شمال شرق مكة المكرمة) انظر: بريك العُمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة دراسة نقدية تحليلية، ص٢٢٥.

وعُسفان.[1] في صفر من السنة الرابعة للهجرة قدم رهط من عضل والقارة من الهون من مضر على رسول الله ﷺ في المدينة، وقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاماً فأبعث نفراً من أصحابك يفقهونا في الدين ويعلموننا شرائع الإسلام (فبعث النبي ﷺ سرية عيناً وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت وهو جد عاصم ابن عمر بن الخطاب،[2] فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة ذُكروا لحيّ من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائة رام فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجأوا إلى (فدفد).[3] وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا لهم: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب وزيد ورجل آخر،[4] فأعطوهم العهد والميثاق فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم فلما استمكنوا منهم حلوا أوتارَ قِسِيِّهم فربطوهم بها،

---

(١) البكري، معجم ما استعجم، ج١/ ٦٤١.

(٢) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج٢/ ٢٤٤.

(٣) فدفد: أو فدافد ماء معروف بالقرب من ديار هذيل. انظر: البكري، معجم ما استعجم، ج٢/ ١٠١٥.

(٤) هو: عبدالله بن طارق ﵁، انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٤٤؛ الواقدي، المغازي، ج١/ ٣٥٧.

فقال الرجل الثالث الذي معهما : هذا أول الغدر فأبى أن يصحبهم فعالجوه فجرروه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيب بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر فمكث عندهم أسيراً، حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث استحدّ بها فأعارته، قالت: فغفلت عن صبي لي فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذلك مني وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله ما كنت لأفعل ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ وكانت تقول ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب، وما بمكة يومئذ ثمرة، وأنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلى ركعتين، ثم أنصرف إليهم، فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سَنّ الركعتين عند القتل هو، ثم قال: اللهم أحصهم عدداً ثم قال:

ولست أبالى حين أُقتل مسلماً
على أي شقٍّ كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شِلوٍ ممزعِ

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله، وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتي بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيماً

من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظُّلّة من الدبر فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء).[1]

لقد مات هؤلاء الصحابة على حُب رسول الله ﷺ وفداء الإسلام بأرواحهم، والحفاظ عليه مهما كان الثمن، فقد ورد أن زيداً لما جاؤا به ليقتلوه، قال له أبو سفيان بن حرب وكان على الشرك: يا زيد أتحب محمداً الآن؟ عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك، فرد عليه زيد رضي الله عنه: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي!! فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً!![2] كما أن موقف خبيب بن عدي رضي الله عنه عندما تسرَّب إليه الطفل وكان في حجره ومعه الموسى واضحاً في حقن دماء الأبرياء، حيث خشيت الأم على طفلها وارتبكت وارتعبت فما كان من خبيب إلا أن بادر بسؤالها: أتخشين أن أقتله وأجاب في الوقت نفسه، ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله! كان صاحب مبدأ ودعوة وما كان صاحب انتقام

---

(١) من رواية البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب المغازي باب (غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة وحديث عضل والقارة وعاصم بن ثابت وخبيب بن عدي، ج٥/ ٤٠، ٤١؛ وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ١٠٨؛ وابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٩٥.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٤٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨/ ٧٦؛ ابن حجر، الإصابة، ج١/ ٤١٨؛ والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١/ ٢٤٨؛ وانظر: محمد أبو شبهة، السيرة، ج٢/ ٢٣٧.

ولذلك فإن موقفه هذا أثر على هذه الأم، وبقي في نفسها تحدث الناس به.

كان هذا المصاب الجلل صعباً على رسول الله ﷺ وأصحابه ولكنها الدعوة وهؤلاء قافلة من شهدائها رضي الله عنهم أجمعين.

بئر معونة

في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة قدم وفد من بني عامر يترأسه أبو براء عامر بن مالك (مُلاعِب الأسنة)، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام (فلم يسلم ولم يبعد) وطلب براء أن يرسل الرسول الله ﷺ معه بعض القراء من الصحابة لدعوة أهل نجد إلى الإسلام، فخشي ﷺ عليهم ولكن أبا براء قال أنا جارٌ لهم، فأمن ﷺ وكتب كتاباً إلى عامر بن الطفيل، وبعث حرام بن ملحان خال أنس بن مالك رضي الله عنه في سبعين من الأنصار والمهاجرين فيهم عامر بن فهيرة.[1]

فساروا حتى نزلوا بئر معونة ناحية نجد وقابل حرام بن ملحان عامر بن الطفيل وسلمه كتاب رسول الله ﷺ، وقبل أن يقرأه عامر، أوعز إلى أحد رجاله فأنفذ الرمح في ظهر حرام، فأصابه في مقتل فقال حرام: فزت ورب الكعبة! ثم إن عامر بن

---

(١) انظر: صحيح البخاري كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان، ج٥/ ٤٠؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ١٢٠.

الطفيل استصرخ بني عامر فرفضوا أن يخفروا جوار أبي براء الذي أجارهم، وهو من قومهم، فاستصرخ عليهم مجاوريهم بني سليم (رُعل وذكوان وعُصية)، فخرجوا معه مسرعين حتى أحاط عامر بن الطفيل ومن معه من فلول القبائل بأصحاب رسول الله ﷺ، فحاصروهم وقتلوهم ولم يسلم منهم إلا رجلان كانا في سرح القوم، هما عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن محمد بن عقبة، ثم قُتل المنذر بن محمد وأُخذ عمر بن أمية أسيراً. فلما علم القوم انه مُضري أطلقه عامر بن الطفيل بعد أن جز ناصيته، فتوجه إلى رسول الله ﷺ في المدينة وفي الطريق لقي رجلين من بني عامر معهما عهد من رسول الله ﷺ فقتلهما، وهو لا يعلم عهدهما ثأراً لأصحاب بئر معونة. فلما قدم على النبي ﷺ أخبره بما جرى للصحابة القراء وأخبره بقتل الرجلين فقال ﷺ: ((لقد قتلت قتيلين لأدينهم)).[1] وأما أبو براء الذي أجار أصحاب رسول الله ﷺ، فقد شق عليه فعل ابن أخيه عامر بمن أجارهم من أصحاب رسول الله ﷺ فتوجه ابنه ربيعة للانتقام من عامر بن الطفيل الذي خفر ذمة وإجارة أبيه، فطعنه بالرمح ولم يتمكن منه فقتله. وقد دعا الرسول ﷺ على هؤلاء الغادرين شهراً كاملاً ((عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دعا النبي ﷺ على الذين قَتَلوا يعني أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحاً حين

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ١٢١؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ١٤٣.

يدعو على رعل ولحيان وعصبة عصت الله ورسوله ﷺ))[1] كما دعا على عامر بن الطفيل مباشرة فأصابه الله في غدة فمرض في بيت إمرأة من بني سلول، فكره ذلك، وكان يقول: «في غدة كغدة البعير في بيت امرأة سلولية». فركب فرسه وخرج فمات على ظهرها فأكلته السباع والطيور،[2] وقد روى البخاري أن النبي ﷺ كما نعى القراء قال: (إن أصحابكم قد أصيبوا، وأنهم قد سألوا ربهم فقالوا ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك، ورضيت عنها فأخبرهم عنهم فأنزل الله فيهم قرآناً كان يتلى «بلغوا عنا قومنا إنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا».[3] وقد حزن الرسول ﷺ حزناً شديداً على الشهداء في بئر معونة كما حزن على شهداء الرجيع، حيث وصلت أخبارهم في يوم واحد. وكان ما حدث مصاباً جللاً، حيث لم يقتل مثل هذا العدد من الصحابة في المعارك، وقد قتل هؤلاء بالغدر وهم من حملة القرآن والدعاة إلى الله في مرحلة مبكرة، وهذه التضحية فداءً للدين على يد هؤلاء الأعراب الغُدّر تعطينا درساً في مقدار ما بذل أصحاب رسول الله ﷺ في حمل رسالته والدعوة إلى الإسلام.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان. ج٤/ ٤٤.

(٢) انظر: وفد بني عامر من هذا الكتاب.

(٣) من رواية البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة، ج٥/ ٦٤؛ وانظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ١٤٠.

كما أن موقف حرام بن ملحان حينما طعن كان واضحاً أنه وإن كان القتيل فهو المنتصر وصدق الله حين قال: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢)﴾ [التوبة]. قد كان ﷺ يدرك معنى الشهادة، وكان لقوله فزت ورب الكعبة أثر عظيم في نفوس من حضره، كيف يكون قتيلاً مغدوراً مصاباً وفي الوقت نفسه فائزاً، إنها المعاني العظيمة التي يدركها حرام ابن ملحان ومن معه من أصحاب رسول الله ﷺ.

غزوة بني النضير (ربيع الأول ٤هـ)

كان بنو النضير من قبائل يهود يقيمون في المدينة المنورة قبل هجرة الرسول ﷺ إليها، وكانوا ضمن من وادع الرسول ﷺ من يهود المدينة وكتب معهم عهداً في صحيفة المدينة يتضمن الموادعة والدفاع عن المدينة والتعاون في الديات ضمن بنود أخرى.(١)

وقد خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير في منازلهم أطراف المدينة يطلب مساعدتهم في دية رجلين قتلهما عمرو بن أمية الضمري بعد أن نجا من حادثة بئر معونة، ـ كما مرَّ ذكره ـ وكان ﷺ جالساً تحت أحد جدرانهم، فتآمر يهود بني النضير على قتله

(١) انظر: وثيقة المدينة من هذا الكتاب.

بإلقاء الصخور عليه من فوق الجدار، واعتبروها فرصة لهم، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ بنيتهم، فلما صعدوا ليلقوا الصخر على رسول الله ﷺ قام ﷺ وكأن له حاجة ولم يخبر من معه من الصحابة، فظنوا أنه سيعود لمجلسه، فلما طال الانتظار قام الصحابة في طلب النبي ﷺ فلما لحقوا به في المدينة، أخبرهم ﷺ بغدر يهود واعتزامهم قتله، فبعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمه إليهم يخبرهم باطلاع الرسول ﷺ على غدرهم، ويطلب منهم الجلاء من المدينة خلال عشرة أيام وإلا حاق بهم الهلاك وقاتلهم الرسول ﷺ، فأصابهم الذهول وتحيروا وعلموا أن غدرهم قد كشفه الله تعالى،(١) فبدأوا الاتصال بالمنافقين في المدينة وعلى رأسهم عبد الله بن أُبي علهم يجدون عندهم حلاً ومساعدة، فطمأنهم المنافقون وطلبوا منهم الصبر وعدم الخروج ووعدوهم بالقتال معهم إن احتاجوا إلى ذلك.(٢) وفيهم وفي قولهم نزل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٦٨٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: (ما قطعتم من لينة)، حديث رقم: ٤٨٨٤.

فلما أحس رسول الله ﷺ بعنادهم واستعدادهم للقتال وما أظهره المنافقون من مناصرتهم أمر ﷺ جنده من أصحابه بالاستعداد، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم وحمل رايته علي بن أبي طالب رضي الله عنه.(١) وحاصر بني النضير بضع عشرة ليلة جرى فيها قتال معهم، وبدأ رسول الله ﷺ بإذن من ربه في قطع نخيلهم، ليئسهم وينزل الحسرة والرعب في قلوبهم، ويدفعهم إلى الاستسلام سريعاً، فقال بنو النضير: محمد ينهى عن الفساد وها هو يحرق ويقطع نخلنا فجاء قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥﴾[الحشر].(٢) وشدد ﷺ الحصار عليهم وكذبهم المنافقون ولم ينصروهم، فعلم اليهود نتيجة غدرهم، وحزم رسول الله ﷺ معهم وقذف الله في قلوبهم الرعب رغم تحصنهم واستعدادهم، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن يسمح لهم بما تحمله الإبل من أموالهم عدا السلاح،(٣) فاستسلموا على هذا الشرط، وأُعطوا أياما محددة للرحيل.

وفيهم يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ج٢/ ٥٨.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٢٨٣.
(٣) ابن هشام، السيرة، ج٣/ ١٩٠.

حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر]. (١) ثم خرجوا في تظاهرة كبيرة متجلدين متصابرين متظاهرين بعدم المبالاة فخرجوا (بالنساء والأبناء والأموال، معهم الدفوف والمزامير، والقيان يعزفن من خلفهم بزهاء وفخر ما رئي قبله من حي من الناس في زمانهم). (٢) وبجلائهم أراح الله المسلمين من شرهم وكف أذاهم وأسلم منهم رجلان فترك لهما رسول الله ﷺ أموالهما. (٣) وقد نزلت في بني النضير سورة الحشر بأكملها(٤) خص أولها بالحديث عن يهود في قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا

(١) كان ابن عباس يسميها سورة بني النضير. صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحشر، حديث رقم: ٤٨٨٢؛ وابن كثير، تفسيره، ج٢/ ١٨٤٤.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية ج٣/ ١٩٢.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾﴾ [الحشر].[1] كما تضمنت بقية السورة ما يرتبط بالفيء وأحكامه، وأصبحت نظاماً مالياً وحكماً شرعياً للتعامل فيه مع ما يُكسب من الأعداء بلا قتال، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر].

وقد تضمنت الآيات الثناء على المهاجرين والأنصار، والتحدث عن فقر المهاجرين وإيثارهم إياهم. وقد قال الرسول ﷺ: ((إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليّ من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من

(١) انظر: تفسير سورة الحشر، عند ابن كثير، في تفسيره، ج٢/ ١٨٤٤.

السكنى في منازلكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم)). فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ ـ زعيما الأنصار ـ يا رسول الله ﷺ بل تقسم بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا، وقالت الأنصار رضينا وسلمنا يا رسول الله ﷺ فقال ﷺ: ((اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار))،(١) وقسم رسول الله ﷺ الأموال والدور بين المهاجرين وأعطى رجلين من فقراء الأنصار، وكان مُخيريق أحد أثرياء بني النضير قد أسلم قبل أُحُد وقاتل مع المسلمين، وقال: فإن أصبت فمالي لمحمد يصنع به ما يشاء، فقتل فكان له سبع مزارع أنفقها الرسول ﷺ على المحتاجين من المسلمين.(٢) وأثبت الأنصار أنهم أهل لما وصفهم الله به ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر].

وحينما أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه(٣) وضع الخراج على الأرض وتدوين الدواوين أثناء خلافته جمع الصحابة رضي الله عنهم من

---

(١) شرح الزرقاني، ج٢/ ٨٢؛ وانظر: صالح الشامي، من معين السيرة، ص٢٨٧؛ ومهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٤١٧.

(٢) ابن حجر، الإصابة، ج٣/ ٣٩٤؛ والواقدي، المغازي، ج٣/ ٣٧٨.

(٣) انظر: جزء من الرواية، عند البخاري في صحيحه، عن عمر بن الخطاب، كتاب التفسير، باب قوله: ما أفاء الله على رسوله، ج٦/ ٥٨.

أهل الرأي في المدينة وناقشهم حول قسمة الأراضي بين الفاتحين أو تركها ووضع الخراج عليها، واستفادة عامة المسلمين من وارداتها عن طريق الديوان، وقد استشعر عمر رضي الله عنه أحداث غزوة بني النضير واستشهد بالآيات الواردة فيها وأن لمن يأتي من أجيال المسلمين حق في هذا المال منطلقاً من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر].

وقد أورد أبو يوسف في كتاب «الخراج»: (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استشار الناس في السواد حين افتتح، فرأى عامتهم أن يقسمه، وكان بلال بن رباح من أشدهم في ذلك، ورأى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أن يتركه ولا يقسمه، فقال: اللهم اكفني بلالاً وأصحابه. ومكثوا في ذلك يومين أو ثلاثة أو دون ذلك ثم قال عمر رضي الله عنه: إني قد وجدت حجة، قال تعالى في كتابه: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦﴾ [الحشر]، حتى فرغ من شأن بني النضير، فهذه عامة في الفيء كلها ثم قال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾ [الحشر]. ثم قال: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن

دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر]، ثم لم يرض وخلط بهم غيرهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر]. فهذا فيما بلغنا والله أعلم للأنصار خاصة ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر]. فكانت هذه عامة لمن جاء بعدهم، فقد صار هذا الفيء بين هؤلاء جميعاً فكيف نقسمه لهؤلاء وندع من تخلف بعدهم بغير قسم، فأجمع على تركه وجمع خراجه، قال أبو يوسف: والذي رأى عمر رضي الله عنه من الامتناع من قسمة الأراضين بين من افتتحها عند ما عرّفه الله ما كان في كتابه من أن ذلك توفيقاً من الله كان له فيما صنع، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم، لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس في الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير في الجهاد.[1]

---

(١) انظر: أبو يوسف، الخراج، ص ٢٣؛
وأبو يعلي، الأحكام السلطانية، ص١٦٦.

وقد ختمت آيات سورة الحشر بالمنافقين وربطتهم بيهود في قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر].

كما أنها كشفت عن طبائع يهود وجبنهم وأسلوبهم في القتال في قوله تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر].

وما الجُدُر التي يبنيها يهود في فلسطين إلا تصديقاً لما ورد في هذه الآيات عن بني النضير خاصة ويهود عامة في كل زمان ومكان.

بدر الآخرة (الموعد) (شعبان ٤هـ)[١]

كان أبو سفيان في نهاية غزوة أحد قد واعد المسلمين لقتالهم في بدر العام القادم، وكانت بدر سوقاً للعرب لها موسمها في شعبان من كل عام، تقام فيها التجارة والبيع والشراء ويلتقي فيها العرب.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٠٩.

وقد كره أبو سفيان ومن معه من قريش الاستعداد لقتال النبي ﷺ، وكان ﷺ وفياً بالوعد وأبو سفيان خائف من اللقاء، ولذلك جعل أبو سفيان جائزة لأحد زعماء غطفان إن ساعده إن استطاع إقناع المسلمين بعدم الخروج للموعد مع قريش إلى بدر.(١)

فخوَّفهم وذكَّرهم من جمع قريش الشيء الكثير الذي لا طاقة للمسلمين به، لكن رد الرسول ﷺ والمسلمين معه كان كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران].(٢)

وخرج رسول الله ﷺ من المدينة متوجهاً إلى بدر، حسب الموعد مع قريش، يرافقه ما يقارب الألف وخمسمائة مقاتل، كانوا في منتهى الشجاعة والاستجابة لأمر الله ورسوله بمعنويات عالية.

أما قريش حيث فشل أبو سفيان في صرف المسلمين عن الخروج وأن يكون مخالفة الموعد من قبل المسلمين، فخرج أبو سفيان ومعه ألفا مقاتل من قريش. وفي الطريق كانوا يخافون لقاء

---

(١) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ١٧٢.

(٢) ابن كثير، تفسيره، ج١/ ٤٢٣.

المسلمين، فقال لهم أبو سفيان: يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن فإن عامكم هذا عام جدب وإني راجع فأرجعوا ورجعت قريش ولم تفِ بالموعد.[1] أما الرسول ﷺ فقد وصل بدر ووفى بالموعد، وبقي في بدر ثمانية أيام، التقى فيه بزعماء بني ضَمُرة، وهم من سكان المنطقة الذين وادعوا رسول ﷺ واستغربوا من وجوده مع جيشه، فخيرهم الرسول ﷺ إن اختاروا إلغاء عهده معهم، فقالوا ما لنا بذلك من حاجة، وقد بقي المسلمون في المنطقة، وقاموا بأعمال تجارية سلمية، وعادوا بعد ذلك ولم يلقوا كيداً.

وكان لهذه الغزوة أثر كبير بين قبائل العرب الذين سمعوا بخروج الرسول ﷺ وبقوته ومن معه من المسلمين، كما عرفوا تخاذل قريش وانسحابها وأصبحت عاراً عليهم، وموضع سخرية الشعراء منهم.[2]

غزوة دومة الجندل (ربيع الأول ٥ هـ)[3]

دومة الجندل بلدة شمال الجزيرة العربية بالقرب من حدود الشام، مشهورة بحصونها وأسواقها. وهي وسط بين تجارة الشام

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٦٩٥؛ وانظر: محمد الصلابي، السيرة النبوية، ج٢/ ٢٨٨؛ ومهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٢٣.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢١٠ ـ ٢١٣.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢١٣؛ وقد وضع عنواناً خاصاً لهذه الغزوة.

والحجاز. واشتهرت بقصرها المشهور وزعيهما (أُكيدر).[١] وقد سمع الرسول ﷺ بتجمع قبلي فيها يجيش الناس لتهديد المدينة والمتوجهين إليها.[٢]

فخرج ﷺ ومعه ألف مقاتل، وحاول إخفاء تحركه، فكانوا يسيرون الليل ويكمنون بالنهار،[٣] فلما دنوا من دومة الجندل تفرقت جموع الأعداء وهربوا في كل صوب، فنزل رسول الله ﷺ بساحتهم وغنم من مواشيهم، وبث سراياه، وأقام قرابة الشهر في الموضع، أظهر خلالها هيبة المسلمين ورحمتهم في الوقت نفسه، كما أسلم بعض أهل المنطقة،[٤] وعقد معاهدات مع بعض زعماء القبائل ومنهم عيينة بن حصن الفزاري.[٥]

وهذه الغزوة لها أهميتها في إظهار قوة المسلمين أمام الروم وأتباعهم، حيث كانت مناطقهم أقرب إلى دومة الجندل من المدينة، بالإضافة إلى أن معظم القبائل المحيطة بها كانت ذات صلة بالشام عموماً، وكثير منهم من نصارى العرب.[٦]

---

(١) انظر: نايف الشراري، دومة الجندل، منذ ظهور الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية، دراسة تاريخية، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٢٦هـ.

(٢) انظر: نايف الشراري، دومة الجندل، منذ ظهور الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية، ص٢١٣.

(٣) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ١٧٧.

(٤) انظر: محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ج٢/ ٢٥١.

(٥) محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ج٢/ ٢٥٢.

(٦) انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢/ ٤٧٨.

غزوة الأحزاب (الخندق)(١)

كان سبب الغزوة أن جماعة من زعماء اليهود في المدينة ذهبوا إلى مكة، وأخذوا يحرضون قريشًا على غزو الرسول ﷺ في المدينة، ووعدوا أنهم سوف يساعدون قريشًا حتى يستأصلوا محمدًا ﷺ ومن معه، وأفتوهم بأن دين قريش خير من دين محمد ﷺ، وفيهم وفي قولهم نزل قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء].(٢) فأجابت قريش بزعامة أبي سفيان إلى ذلك.

---

(١) وضع البخاري في صحيحه بابًا سماه: (غزوة الخندق وهي الأحزاب) فتح الباري، ج ١٥/ ٢٧٤، وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، غزوة الخندق، ص٢٤٦.

(٢) الواقدي: المغازي، ج٢/ ٤٤٢، ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢١٥، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٤/ ٥١٣، وانظر: تخريج ذلك عند رزق الله، السيرة النبوية، ص٤٤٥.

ثم إن أولئك النفر من اليهود توجهوا إلى غطفان وغيرها من قبائل نجد فدعوهم إلى حرب المسلمين في المدينة وواعدوهم ومنوهم كما فعلوا مع قريش، وتمكن اليهود من تحزيب الأحزاب لحرب الرسول ﷺ ومن معه.[1]

كان ﷺ كعادته يتتبع أخبار أعدائه من قريش وغيرها، وقد جاءته عيونه بالخبر قبل تحرك القوم، وبالتالي جمع الصحابة يستشيرهم فيما ينبغي عمله لمواجهة الاعتداء القادم، خصوصًا أن الأعداء كثر والمدينة قد لا تتحمل الدفاع ضد تلك القوات.

وكان أحد الآراء المطروحة إشارة من سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر خندق حول المدينة، يمنع الفرسان والراجلة من اقتحامها، وفي الوقت نفسه يمكِّن المسلمين من الدفاع، خصوصًا أن الوضع الجغرافي للمدينة كان مناسبًا لذلك. وقد استحسن الرسول ﷺ الفكرة،[2] وخطط مكان الخندق المقترح، وقسم العمل فيه على أصحابه، فكان نصيب كل عشرة منهم أربعين

---

(١) انظر: ابن حجر (فتح الباري)، ج١٥/ ٢٧٥؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢١٥، الواقدي، المغازي، ج٢/ ٤٤٣؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد ج٤/ ٥١٣.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، ج ١٥/ ٢٧٥،
الواقدي، المغازي، ج٢/ ٤٤٥، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٥١٤، وانظر: تخريج ذلك عند د. أكرم العمري، السيرة الصحيحة، ص٤٢٠، د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٤٤٦.

ذراعًا، وعمل الرسول ﷺ مع الصحابة في الحفر، حيث كان يضرب بالفأس ويحمل التراب بيديه الكريمتين.

كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغبرَّ بطنه ويردد قول الصحابة:

والـلـه لـولا الله مـا اهـتـديـنـا
ولا تـصـدقـنـا ولا صـلـيـنـا

فـأنْـزِلـنْ سـكـيـنـةً عـلـيـنـا
وثـبِّـتِ الأقـدام إن لاقـيـنـا

إن الأُلـى قـد بـغـوا عـلـيـنـا
إذا أرادوا فـتـنـة أبـيـنـا[1]

وتسلل جماعة من المنافقين فارين من تأدية الواجب الملقى عليهم، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور]. وكان المؤمنون إذا احتاج الرجل منهم إلى حاجة لم ينصرف إليها حتى يأذن له رسول الله ﷺ، فامتدحهم الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ

---

(١) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٥٧.

شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢)﴾ [النور] .(١)

وفي أثناء حفر الخندق اعترضت للمسلمين صخرة فقام الرسول ليحطمها، وحين ضربها برقت منها بارقة فكبّر وكبّر المسلمون معه، ثم ضربها ثانية فبرقت فكبر وكبر المسلمون معه، ثم ضربها ثالثة فبرقت فكبر وكبر المسلمون معه، وقد قال ﷺ إثر الضربة الأولى: ((الله أكبر أُعطيت مفاتيح الشام والله إني لأبصر قصورها الحمراء الساعة، ثم ضربها الثانية فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض، ثم ضربها الثالثة وقال الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة)).(٢) فاستبشر المسلمون، وبهذا تيقن ﷺ والمؤمنون معه أنهم سيغلبون أولئك الملوك وسيفتحون ديارهم وصدقوا ما وعد الله ورسوله.

أما المنافقون فقد أخذوا يتهكمون بما ذكره الرسول ﷺ من موعود الله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا (١٢)﴾ [الأحزاب].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ج٢/٢٤٨؛ وله رأي عام في الآية ومخالفة المنافقين لأمر الرسول ﷺ عموماً.

(٢) رواه ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٦١؛ رواه احمد في مسنده ج٤/٣٠٣، وحسنه عدد من العلماء منهم ابن حجر، انظر: د. أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج٢/٤٢٣، ود. مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص ٤٤٩، هامش٤٢.

ووصلت قريش ومعها الأحزاب، وعددهم عشرة الآف مقاتل، وعسكروا حول المدينة، واستغربوا من وجود الخندق، حيث لم يكن للعرب عهد به، وعسكر الرسول ﷺ ومعه قرابة ثلاثة آلاف من المجاهدين، بعد أن جمعوا النساء والذرية في حصون الأنصار.[1]

وكان الوقت عصيبًا جدًا، إذ لم يكن المسلمون يأمنون على أنفسهم ليلاً ولا نهارًا، خصوصًا أن يهود بني قريظة كانوا في ناحية من المدينة،[2] والمسلمون قد عاهدوهم في الدفاع المشترك عن المدينة، ومع ذلك لا يأمنوا أن يستمر يهود على عهدهم، وبالتالي أحس المسلمون بالخطر يحدق بهم من كل جانب كما وصف الله ذلك بقوله: {﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴿١١﴾﴾ [الأحزاب].[3]

وبدأت قوات الاستطلاع للأحزاب بتحسس الخندق لعلهم

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢١٩، الواقدي، المغازي، ج ٢/ ٤٤٣، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٤/ ٥٢٤.

(٢) انظر: شوقي أبو خليل الخندق غزوة الأحزاب، دار الفكر، عن ط١ دمشق ١٤٠٦هـ، ص١٠٩.

(٣) انظر: صحيح البخاري، فتح الباري، ج١٥/ ٢٨٣؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص٢٥٥.

يجدون فرجة ينفذون منها، وتمكنت مجموعة من فرسانهم من اختراق الخندق في أحد المواضع، لكن جند الإسلام وعلى رأسهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه تمكنوا من صدهم وقتل بعضهم، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتسليم قتلى قريش، ولم يرض أن يأخذ مقابلاً لذلك.(١)

وقد استمر المسلمون ليلاً ونهاراً في حراسة الخندق ومنع القوم من اختراقه، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يهتم بنفسه في حراسة المناطق الضعيفة منه. ولذلك حاول الأحزاب أن يجدوا وسيلة أخرى يفسدون بها تحصن المسلمين. وكان مع الأحزاب رجال من يهود وعلى رأسهم حُيي بن أخطب، الذي توجه إلى يهود بني قريظة في حصونهم، وبذل جهودًا مختلفة من المكر والحيلة حتى تمكن من إقناع زعيم بني قريظة بنقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين. وقد جاءت عيون النبي صلى الله عليه وسلم بخبر زيارة حيي بن أخطب لبني قريظة ونقضهم للعهد مع المسلمين، ووعدهم لقريش بالتعاون معهم ضد النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه، وحزن الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الخبر، وأراد أن يتأكد منه بنفسه، وفي الوقت نفسه حرص على أن لا يعلم به أحد من المسلمين حتى لا يَفُتّ في عضدهم ويؤثر على قواهم المعنوية، ولذلك بعث

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣ / ٢٢٥، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/ ٦٨، الواقدي، ج ٢/ ٤٦٤، ٤٧٤، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٥٣٢، ٥٣٦؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٦٣.

الرسول ﷺ أربعة من الأنصار ممن لهم علاقة وحلف مع بني قريظة منهم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة سيدا الأوس والخزرج، وأمرهم بزيارة بني قريظة في حصونهم والتأكد من الخبر، وأن يكتموا الأمر عن الناس إن كان القوم قد غدروا، وأن يلحنوا للرسول ﷺ لحنًا يعرف منه الموقف، فخرج القوم إلى بني قريظة، والتقوا بهم، وبحثوا الأمر معهم، فأغلظ اليهود في سب النبي ﷺ وسب أصحابه وقالوا: من رسول الله لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فنصحهم سعد بن معاذ وخوفهم من نتائج الخيانة ـ وكان حليفًا لهم ـ، فردوا عليه بفحش وبذاءة، وعاد الوفد إلى الرسول ﷺ فقالوا له: عضل والقارة، يعني أن اليهود قد غدروا كغدر عضل والقارة،[1] وهما القبيلتان اللتان غدرتا بأصحاب الرجيع،[2] واشتد البلاء على المسلمين، وتعاون اليهود والمشركون والمنافقون في إيصال خبر غدر اليهود، وبرز النفاق وأهله على أشده ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب]، واشتد البلاء على المسلمين، حيث قويت شوكة الأحزاب بانضمام بني قريظة

(١) انظر: ابن حجر، (فتح الباري)، ج١٥/ ٥٨٤، ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٢١؛ الواقدي، المغازي، ج ٢/ ٤٥٨، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٥٢٨.

(٢) انظر: حادثة الرجيع من هذا الكتاب.

إليهم، وحاول بعض اليهود الاعتداء على نساء المسلمين في الحصون، فدافعن عن أنفسهن دفاع الشجاعات وعلى رأسهن صفية بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ.(١)

وفي هذه الظروف العصيبة جاء إلى النبي ﷺ نعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه ـ من غطفان ـ، وكان قد قدم مع الأحزاب فإلتقى برسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله إني قد أسلمت ولم يعلم قومي فَمُرْني بما شئت، فأراد الرسول ﷺ أن يستفيد من هذا المجاهد المجهول إلى أقصى حد ممكن، فقال له: إنما أنت رجل واحد فخذِّل عنا ما استطعت فإن «الحرب خدعه»،(٢) فخرج نعيم بن مسعود رضي الله عنه وقد تلقى توجيهات النبي ﷺ حتى أتى بني قريظة، وكان على معرفة بهم منذ أيام الجاهلية فقال لهم: قد عرفتم ودي إياكم، فقالوا لست عندنا بمتهم، قال : لقد ظاهرتم قريشًا وغطفان على حرب محمد، وليسوا مثلكم، البلد بلدكم، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، ولا تقدرون على أن تتحولوا منه، وإن قريشًا وغطفان إن رأوا نهزة وغنيمة أصابوها، وإن رأوا غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين محمد، ولا طاقة لكم به. ثم واصل حديثه معهم:

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٢٨، الواقدي، المغازي، ج٢/ ٤٦٠، ٤٦٢، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٥٢٨، ٥٢٩.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٢٨، الواقدي، المغازي، ج٢/ ٤٦٠، ٤٦٢، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٥٢٨، ٥٢٩.

وأرى أن لا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم ثقة لكم حتى تناجزوا محمدًا ولا يتركوكم وحدكم.

ثم إن نعيمًا نفسه أتى قريشًا فقال لزعيمها أبي سفيان بن حرب ومن معه: قد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمدًا، وقد بلغني أن قريظة ندموا على فعلهم مع محمد، وقد أرسلوا إلى محمد وقالوا له: هل يرضيك عنا أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم؟ فأجابهم: نعم.

ثم واصل نعيم حديثه متظاهرًا بتحذير قريش قائلاً لهم: فإن طلبت منكم قريظة رهنًا فلا تعطوهم رجلاً واحدًا، ثم خرج إلى غطفان وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم من بني قريظة.[1] وكانت غطفان وقريظة وقريش قد اتّعدوا من الغد أن يبدأوا القتال، وكان ذلك يوم سبت، فأرسلت قريش إلى بني قريظة ليشاركوهم القتال في ذلك اليوم فقالوا: إن اليوم يوم سبت ولسنا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنًا فإنا نخشى أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل، يقصدون النبي ﷺ، فقالت قريش وغطفان: والله لقد صدقكم نعيم بن مسعود، والله لا ندفع لكم

---

(١) عند ابن أبي شيبة في المغازي، ص ٢٥٦؛ أن الرسول ﷺ سرب خبراً لمسعود بأن قريظة سيطلبون من أبي سفيان رهائن ليسلموهم للنبي ﷺ، فبادر ونقل الخبر لقريش فأوقع القطيعة بين الطرفين.

رجلاً واحدًا. وقالت قريظة لقد صدقكم نعيم بن مسعود، وفشل اتفاق القوم وساء ظن بعضهم ببعض.[1]

فجاءهم المساء ولم يعملوا شيئًا مع المسلمين. وفي الليل أرسل الله على الأحزاب ريحًا شديدة وبردًا، فجعلت تطرح خيامهم وتكفأ قدورهم، وهى التي قال الله عنها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩﴾ [الأحزاب]. فاضطرب معسكر المشركين وسمع فيهم ضجيج.[2]

فبعث النبي ﷺ حذيفة بن اليمان ﵁ ليستطلع له أخبار القوم، وقد أمره أن لا يحدث شيئًا وأن لا يقوم بأي عمل غير الاستطلاع حتى لو أتته الفرص، فذهب حذيفة ودخل معسكر قريش، وجلس مع جمع منهم ملتفين بعبيهم حول النار، واندس بينهم دون أن يعرفه أحد، والبرد شديد والريح تعبث بهم، وكان أبو سفيان في القوم وهو حريص على عدم وجود عيون النبي ﷺ بينهم، فقال للقوم قبل أن يبدأ الحديث ليتعرف كل منكم على جليسه، فما كان من حذيفة إلا أن بادر بسؤال

---

(١) انظر: تفاصيل القصة في: ابن هشام السيرة النبوية، ج٣/ ٢٢٩، ٢٣١، الواقدي، المغازي، ج٢/ ٤٨٠، ابن سعد، الطبقات، ج٢/ ٦٩، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٥٤١، ٥٤٤.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٣١؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/ ٦٩؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٥٤٥.

جليسه الذي عن يمينه: من أنت؟ ثم التفت إلى الرجل الذي يجلس عن يساره وسأله من أنت؟. وبذلك تجاوزه السؤال ولم ينتبه له القوم، وقد تحدث أبو سفيان في القوم وقال: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا قريظة ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما يقرّ لنا قِدْر ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا إني مرتحل، ثم ركب أبو سفيان جمله يريد الرحيل، فاستوقفه القوم ليرحلوا معه، فانسحبت قريش وأبقت بعض الفرسان لتحمي انسحابها، ثم تبعها بقية قبائل الأحزاب.

وجاء حذيفة رضي الله عنه ليبشر رسول الله ﷺ بانسحاب القوم، بعد أن حاصروا المدينة قرابة خمس وعشرين ليلة.[1]

وحين خلت المدينة من الأحزاب قال ﷺ لأصحابه: «الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير إليهم».[2] فكان المستقبل كما قال ﷺ، بعد ذلك سمح ﷺ بعودة المجاهدين المرابطين حول الخندق إلى بيوتهم وصدق الله القائل: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا

(١) انظر: قصة حذيفة في فتح الباري، ج١٥/ ٢٨٤، ابن هشام السيرة النبوية، ج٣/ ٢٣١ ـ ٢٣٣؛ الواقدي، المغازي، ج٢/ ٤٨٨ ـ ٤٨٩؛ ابن سعد، الطبقات، ج٢/ ٦٩، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٥٤٦ ـ ٥٤٩.

(٢) البخاري، فتح الباري، ج ١٥/ ٢٩٠.

عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحزاب]. وقد فقد المسلمون ستة شهداء،[1] كما قتل من المشركين ثلاثة نفر.[2] وقد نزلت حول أحداث هذه الغزوة سورة الأحزاب التي سميت بها وكان مما ورد فيها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٦﴾ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧﴾ ۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٥٢؛ الواقدي، المغازي، ج٢/ ٤٩٥، وانظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/ ٧٠؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٥٥٠.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٥٣، الواقدي، المغازي، ج٢/ ٤٩٦، الصالحي الشامي، ج٤/ ٥٥١.

إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم
بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ
ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ
يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟
فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن
كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ
قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا
وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ
نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ
بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ
ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب].

ويقول الله تعالى في موضع آخر من السورة: ﴿يَحْسَبُونَ
ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى
ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا
﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ
ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا
ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن
يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب]. (١)

ومع رحيل الأحزاب فإن جولة المعركة لم تنته بعد، فما إن رجع الرسول ﷺ إلى بيته ووضع سلاحه حتى أتاه جبريل عليه السلام فقال له: ((قد وضعت سلاحك! والله ما وضعناه، فأخرج إليهم، قال ﷺ: فإلى أين؟ قال: هاهنا وأشار إلى بني قريظة فخرج النبي ﷺ إليهم)). (٢) فعلم رسول الله ﷺ أن قتال الخونة من يهود بني قريظة هو أمر من الله سبحانه وتعالى، فدفع لواءه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، (٣) وأمر بالنداء في المسلمين أن «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة»، (٤) ثم خرج ﷺ بنفسه للحاق بأصحابه، وعسكر الرسول ﷺ ومعه أصحابه حول حصون بني قريظة، وبدأ حصارهم الذي استمر بضع عشرة ليلة، أنزل الله فيها الرعب في قلوب اليهود، وزلزلهم الله، واشتد عليهم الخوف، حتى أصبحوا يطلبون بعض حلفائهم من الأوس، ولكنهم كانوا أعلم الناس بغدرهم ومكرهم برسول الله

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول الآيات المرتبطة بغزوة الأحزاب انظر: الفنسيان. سعود بن عبدالله، غزوة الأحزاب في ضوء القرآن الكريم، ط١دار اشبيليا، الرياض ١٤١٨هـ.

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري)، ج١٥/ ٢٩٣؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص٢٦٤.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٣٤؛ الواقدي، المغازي، ج٢/ ٤٩٩، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ١٠.

(٤) البخاري (فتح الباري)، ج١٥/ ٢٩٤.

ﷺ، وما يستحقونه من العقوبة، حتى أنهم في أثناء الحصار كانوا ينالون منه ﷺ.[1]

ولما اشتد الحصار على يهود بني قريظة وأيقنوا أنه لا مفر من وقوعهم في يد الرسول ومن معه من المؤمنين، وزلزل الله قلوبهم، أعلنوا استسلامهم على حكم رسول الله ﷺ، فجاء الأوس إلى رسول ﷺ يشفعون فيهم، (فرد الحكم إلى سعد بن معاذ فقال: إني أحكم فيهم أن تُقتَلَ المقاتلة وأن تُسبَى الذرية)،[2] فقال ﷺ: «قضيت بحكم الله»،[3] وكان سعد قد اتصل بهم أثناء حصار الخندق، ومن الذين اطلعوا على غدر اليهود، حيث بعثه الرسول ﷺ مع الوفد الذي ناقشهم، فأخذ سعد العهد على الجميع بأن يقبلوا حكمه فقبلوه، ثم أعلن الحكم الصارم في حق يهود بني قريظة ناقضي العهد وخائني الرسول ﷺ والمؤمنين وخائني موطنهم، وهو أن تقتل مقاتلتهم وأن تسبى نساؤهم وذراريهم وأن تقسم أموالهم، ونفذ الحكم فيهم، وهم أعلم الناس باستحقاقهم لتلك العقوبة، وسلم من هذا الحكم أحد زعماء بني قريظة، وكان قد عاب على قومه نقضهم للعهد مع الرسول ﷺ وقال:إني لم أشرككم في

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/ ٢٣٤؛ الواقدي، المغازي، ج٢/ ٤٩٩، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ١٢.

(٢) البخاري، (فتح الباري)، ج١٥/ ٣٠٠؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص٢٦٦.

(٣) البخاري، (فتح الباري)، ج١٥/ ٢٩٨.

غدركم، وشاركه في البراءة من خيانة بني قريظة رجال آخرون، وكان ما يزال على يهوديته، إلا أن رفضه لنقض العهد نجاه وأمثاله من العقوبة.[1]

وكانت غزوة الأحزاب وبني قريظة نصرًا للمؤمنين هزم الله فيها الأحزاب لم ينالوا من المسلمين، وأظهر الله اليهود على حقيقتهم، وطهر المدينة من بني قريظة وغنم المسلمون أموالهم ومزارعهم. وقد نزلت في بني قريظة آيات منها قوله تعالى ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ٢٦ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢٧﴾ [الأحزاب].

غزوة بني المصطلق (المريسيع): ـ (شعبان سنة ٦هـ)

سميت الغزوة باسم قبيلة بني المصطلق، وهم بطن من خزاعة القحطانية، كما سميت بالمريسيع[2] نسبة إلى المكان

(١) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٣٨؛ الواقدي، المغازي، ج٢/ ٥٠٣.

(٢) وضع البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، باباً سماه «باب غزوة بني المصطلق من خزاعة وهي غزوة المريسيع».
للمزيد من التفاصيل انظر: إبراهيم بن إبراهيم قريبي مرويات غزوة بني المصطلق، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، بدون تاريخ؛ وعبدالحليم بن إبراهيم العبداللطيف، حديث الإفك، نادي القصيم الأدبي، بريدة، ١٤١٠هـ.

والماء الذي قصدته الغزوة وهو مواطن بني المصطلق بين مكة والمدينة، بالقرب من عُسفان وقديد وما حولها.

كانت القبيلة في المنطقة الفاصلة بين قريش في مكة، وكانت تهاب قريشاً ولها صلة قوية بهم، ولم يتضح موقفهم من الإسلام في البداية، مع تحالف بقية خزاعة مع الرسول ﷺ إلا أن بني المصطلق خالفوا قومهم، حيث اتضح تقديمهم الدعم لقريش قبيل غزوة أحد،(١) كما أنهم أخذوا يعدون جموعاً لغزو المدينة، وكان ﷺ يراقبهم ويتابع تحركاتهم،(٢) وعندما تأكد من نيتهم غزو المدينة أعد ﷺ جيشاً قوامه سبعمائة مقاتل، واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري رضي الله عنه، وخرج إلى بني المصطلق في شعبان من السنة السادسة للهجرة،(٣) وكان قوام الجيش المهاجرون الذين يحمل رايتهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكذلك الأنصار الذين يحمل رايتهم سعد بن عبادة رضي الله عنه.

وقد وصل الرسول ﷺ إلى مكان تجمعهم ((وأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فنادى في الناس أن قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم فتراموا بالنبل، ثم أمر رسول الله ﷺ المسلمين فحملوا حملة رجل واحد))،(٤) ((فتزاحف الناس

---

(١) البلادي، معجم المعالم الجغرافية في السيرة الذاتية، ص٢٩٠.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٩٠؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٩٧.

(٣) المصدر السابق، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/ ٦٣.

(٤) الواقدي، المغازي، ج١/ ٢٠٠؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٩٨.

واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق وقتل من قتل منهم))، وأصاب المسلمون منهم سبياً كثيراً، فيهم جويرية بنت الحارث (رضي الله عنها).[1]

وقد ظهرت بسالة عدد من الصحابة ﷺ في هذه المعركة، منهم علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنهما ـ وغيرهم.[2]

وقد أدب الرسول ﷺ بهذا الهجوم هذا البطن من خزاعة، وهم الذين ساعدوا قريشاً وأرادوا الهجوم على المدينة.

كان موطن خزاعة بين مكة والمدينة، وكونها جزءاً مخالفاً ومعادياً من خزاعة في وقت كانت بقية بطونها محالفةً للرسولﷺ جعل الجميع يدرك حزم الرسول ﷺ في ضرب أعدائه، فكانت هذه الغزوة تأكيداً لهذا الأمر.

حديث الإفك

كانت حادثة الإفك من أهم أحداث غزوة بني المصطلق.[3] هذه الحادثة التي مست عرض رسول الله ﷺ

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٩١.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٩٤.

(٣) وضع البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، باب حديث الإفك، ج٥/ ٥٥؛ وانظر: تفصيل الروايات عند ابن كثير، في السيرة النبوية، ج٣/ ٣٠٤؛ تحت عنوان «قصة الإفك».

أطهر عرض وأحب نسائه إليه وللأمة جمعاء، ولعل الحديث عن الحادثة من صاحبتها وهي عائشة (رضي الله عنها) أصح الروايات في تفاصيل دقيقة. وهو حديث يعد من أطول الأحاديث، في صحيح البخاري وأكثرها تفصيلاً ودقة برواية ابن أختها عروة بن الزبير ﵁. وقد حرَصتُ على نقله بكامله:
(حديث الإفك والإفك بمنزلة النجس والنجس يقال إِفكهم وَإِفكُهُم فمن قال أَفكهُم يقول صرفهم عن الإيمان وكذبهم، كما قال يُؤفَكُ عنه من أُفِك يصرِفُ عنه من صُرف، عن ابن شهاب قال: حدثني عروة بن الزبير وسعيد بن المسيَّب وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عائشة (رضي الله عنها) زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، وكلهم حدثني طائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض واثبت له اقتصاصاً،وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة، وبعض حديثهم يصدق بعضاً، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض، قالوا قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أَقْرَعَ بين أزواجه، فأيهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما أُنزل الحجاب، فكنت أُحمَلُ في هودجي وأُنزَلُ فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل، دنونا من المدينة قافلين، أذن ليلةً بالرحيل، فقمت حين أذنوا بالرحيل

فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فلمست صدري، فإذا عِقْدٌ لي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عِقدي، فحبسني ابتغاؤه. قالت: وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوني فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه، وهم يحسبون إني فيه، وكان النساء إذ ذاك خِفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العُلْقَةَ من الطعام ـ القليل منه ـ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه. وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل فساروا، ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها، فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة، وهم نزول. قالت: فهلك فيّ من هلك، وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أُبي ابن سلول. قال عروة: أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به عنده، فيقره ويستمعه ويستوشيه. وقال عروة

أيضاً: لم يسمّ من أهل الإفك أيضاً إلا حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش في ناس آخرين، لا علم لي بهم، غير أنهم عصبة ـ كما قال الله تعالى ـ وإن كِبّر ذلك يقال عبد الله بن أُبى بن سلول.

قال عروة كانت عائشة تكره أن يُسَبَّ عندها حسان، وتقول إنه الذي قال:

فـان أبــي ووالــدتــي وعــرضــي
لـعـرض مـحـمـد مـنـكـم وقـاء

قالت عائشة: فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين اشتكي، إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: «كيف تيكم» ثم ينصرف، فذلك يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت حين نقهت، فخرجت مع أم مسطح قِبَل المناصع،[1] وكان متبرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُف قريباً من بيوتنا. قالت وأَمْرنا أمر العرب الأُول في البرية قبل الغائط، وكنا نتأذى بالكُنُف أن نتخذها عند بيوتنا، قالت: فانطلقت أنا وأم مسطح وهي ابنة أبي

(١) المناصع: هي مواضع يُبرز إليها للبول والغائط، وعُرفتْ كمتبرَّز للنساء في المدينة. انظر: الزبيدي، تاج العروس، ج٥/ ٥٣٥.

رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وأم مسطح قِبَل بيتي، حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مِرطها فقالت: تعس مسطح. فقلت لها بئس ما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدراً فقالت: أي هنتاه ولم تسمعي ما قال؟ قالت: وقلت: ما قال فأخبرتني بقول أهل الإفك ـ قالت ـ فازددت مرضاً على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل عليِّ رسول الله ﷺ فسلم ثم قال: «كيف تيكم». فقلت له أتأذن لي أن آتي أبويَّ، قالت: وأريد أن استيقن الخبر من قبلهما، قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ، فقلت لأمي يا أمتاه ماذا يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها. قالت: فقلت: سبحان الله أوقد تحدث الناس بهذا، قالت: فبكيت تلك الليلة، حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي قالت: ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال أسامة: أهلُكَ ولا نعلم إلا خيراً. وأما علي فقال: يا رسول الله لم يضيّق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسَلِ الجارية تصدقك. قالت فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: «أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك».

قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قط أغمصه، غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتاتي الداجن فتأكله قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أُبي وهو على المنبر فقال «يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلي إلا معي». قالت: فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل فقال أنا يا رسول الله أعذرك، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام رجل من الخزرج، وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه، وهو سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل فقام أسيد بن حُضير ـ وهو ابن عم سعد ـ فقام لسعد بن عبادة فقال: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. قالت: فثار الحَيّان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت قالت: فبكيت يومي ذلك كله، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم قالت: وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا يرقا لي دمع ولا اكتحل بنوم، حتى إني لأظن أن

البكاء فالِقٌ كبدي، فبينا أبواي جالسان عندي وأنا ابكي، فاستأذنت عليَّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي قالت: فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا، فسلم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «أما بعد، يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا، فان كنت بريئة، فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه». قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلُص دمعي حتى ما أحسّ منه قطرة، فقلت لأبي أجِبْ رسول الله ﷺ عني فيما قال. فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال. قالت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت وأنا جارية حديثة السن لا إقرأ من القرآن كثيراً: إني والله قد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقرّ في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لِتُصَدِّقُنّي، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال: «فصبرٌ جميلٌ والله المُستَعان على ما تصفون». ثم تحولت واضطجعت على فراشي، والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله مُنزِلٌ في شأني وحياً يُتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن

يتكلم الله فيّ بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء، حتى أنه ليتحدر منه من العرق مثل الجُمان وهو في يوم شاتٍ، من ثقل القول الذي أُنزل عليه قالت: فسُرِّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: «يا عائشة أمّا الله فقد برَّأَكِ». قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه. فقلت والله لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله عز وجل قالت: وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴿١١﴾﴾ [سورة النور] العشر الآيات، ثم أنزل الله هذا في براءتي. قال أبو بكر الصديق: وكان يُنفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره والله لا أنفقُ على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال. فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴿٢٢﴾﴾ [سورة النور] إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٢٢﴾﴾، قال أبو بكر الصديق: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي .

فرجّع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال والله لا أنزعها منه أبداً. قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال لزينب ماذا علمت أو رأيت. فقالت يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً. قالت عائشة وهى التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ. فعصمها الله بالورع قالت: وطفقت أختها حمنة تحارب لها،

فهلكت فيمن هلك. قال ابن شهاب: فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط. ثم قال عروة قالت عائشة: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت عن كنف أنثى قط. قالت ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله). (١)

ولعل هذه الرواية من صاحبة الشأن بطرقها المتعددة أبلغ ما يقال عن هذه الحادثة.

وقد نزلت في الحادثة آيات تتلى إلى يوم القيامة فيها دروس عظيمة للأمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) صحيح البخاري، باب حديث الإفك، ج٥/ ٥٥ ـ ٥٦٠؛ وقارن بابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٩٧ ـ ٣٠٧.

يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ
وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ
ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن
يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ
وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى
ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور].

لقد كان واضحاً أن الأمة كلها مستهدفة في أخلاقها، فإذا أتهم رسول الله ﷺ، وأهله في أخلاقهم وأعراضهم فإن بيوت الأمة كلها لا تسلم، ولذلك صرح القرآن الكريم بأن هذا العمل كان من أهدافهم قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور].

وحذر من الذين يجرون الناس إلى خطوات الشيطان وقد نهاهم الله عن ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور]. ولا شك أن رسول الله ﷺ سيد الطيبين وأمهات المؤمنين أطيب الطيبات ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ

لِلْخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)﴾ [النور]. وهو أطيب الطيبين صلوات الله وسلامه عليه، واختار الله له أطيب النساء ومنهن عائشة (رضي الله عنها) التي امتدحها حسان بن ثابت رضي الله عنه بقوله:

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تزنُّ بريبةٍ
وتصبحُ غَرْثى من لحومِ الغَوافِلِ[(١)]

عقيلةُ حيٍّ من لؤيّ بن غالبٍ
كرامُ المساعي مجدُهُمْ غيرُ زائِلِ

مُهذّبةٌ قد طيَّبَ الله خيمها
وطهّرها من كل سوءٍ وباطلِ

ومن قوله:

فإنّ أبي ووالدتي وعرضي
لعرض محمد منكم وقاء[(٢)]

وبكل أسف يأتي بعض الأدعياء ليقولوا كلاماً خبيثاً عن الطيبة عائشة (رضي الله عنها) زوجة أطيب الطيبين أبي الطيب ﷺ، وصاحبه والداعي إليه.

(١) من رواية للبخاري في صحيحه، ج٥/ ٦١؛ وابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٠٦.
(٢) انظر: شعر حسان بن ثابت في تبرئه عائشة والدفاع عنها؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٠٦.

وسبحان الله يرد التأكيد في السورة نفسها على غض البصر من قبل الرجال والنساء لمتابعة الدروس في العفة لأمة الطهارة أمة محمد ﷺ اقتداء به وبأزواجه أمهات المؤمنين ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور].

ومن الواضح أن الصديق رضي الله عنه كان مستهدفاً مع رسول الله ﷺ في الإفك الذي جرى على أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها)، كما أنه تضرر من أناس تحدثوا في الموضوع في وقت كان رضي الله عنه يحسن إليهم ويتصدق وينفق عليهم من ماله الخاص، ولذلك حزن لفعلهم ذلك ونكرانهم للجميل فأراد أن يوقف نفقته على مسطح بن أثاثة وهو ابن خالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور]، قال الصديق رضي الله عنه: بلى

والله إنا نحب أن يغفر الله لنا، وأرجع ما كان ينفق على مسطح وقال والله لا أنزعها منه أبداً.[1]

وكان من أبرز أحداث غزوة بني المصطلق ما جرى من المنافقين خصوصاً عبد الله بن أُبي بن سلول، ومن على شاكلته في زمن النبي ﷺ. ولا شك أن لهم أتباعاً في كل زمان، ينطبق عليهم ما نزل من آيات قرآنية في أولئك المنافقين.

فقد اقتتلَ عند الماء رجلان، أحدهما من غفار أجير لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه، والآخر حليف لأحد الأنصار، فصرخ أجير عمر يا معشر المهاجرين: وصرخ حليف الأنصاري: يا للأنصار، وكاد الشر أن يقع بين المسلمين. فلما سمع رسول الله ﷺ بذلك قال: ((أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم دعوها فإنها منتنة)).[2]

وكان عبد الله بن أُبي بين أناس من الأنصار ومعهم زيد بن أرقم رضي الله عنه صحابي صغير في السن، يستمع لما يجرى فقال ابن أُبي مستثيراً القوم: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول (سمِّن كلبك يأكلك) أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجنّ الأعزُّ منها

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ج٢/ ١٣٢٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب يقولون لأن رجعنا إلى المدينة، حديث رقم: ٤٩٠٧.

الأذلَّ، ثم أقبل يلوم من حوله من الأنصار قائلاً: أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم.

ثم ذهب زيد بن أرقم ﵁ وهو غلام حدث، فأخبر رسول الله ﷺ بما قال عبد الله بن أُبي وكان عمر بن الخطاب حاضراً فقال: يا رسول الله ﷺ مُرْ به فأقتله، فقال ﷺ: ((فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟!)).(١)

وجاء عبد الله بن أُبي يحلف أنه ما قال ذلك وينفي ما نقله زيد بن أرقم، حتى شك بعض من لم يحضر أن عبد الله بن أُبي صادق، ولاموا زيد بن أرقم وهو غلام حدث. وأمر رسول الله ﷺ بالرحيل في ساعة ما كان يرحل فيها، فجاء أسيد بن حُضير ﵁ مستفسراً من رسول الله ﷺ عن سبب رحيله في هذه الساعة التي ما كان يرحل فيها فقال ﷺ: ((أوما بلغك ما قال صاحبك؟ قال: وأي صاحب: قال عبد الله بن أُبي؟ قال: وما قال؟ قال ﷺ: زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)) قال ﵁: فأنت والله العزيز وهو الذليل، لنخرجنه منها إن شئت، وسار رسول الله ﷺ يومه وواصل ليله وصدر اليوم التالي حتى أرهق الناس فلما وضعوا رحالهم ناموا من شدة التعب، ولم يكن هناك مجال للمناقشة والحديث حول ما دار إذ شُغل الناس حتى تعبوا وأرهقوا.(٢)

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب يقولون لأن رجعنا إلى المدينة، حديث رقم: ٤٩٠٧؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٩١.

(٢) أنظر: ابن أبي شيبة، المغازي ص ٢٦٩.

وفي هذه الأثناء نزلت سورة المنافقين على رسول الله ﷺ، وكان فيها تصديق لما قاله زيد بن أرقم،[1] وهو غلام حدث فأخذ رسول الله ﷺ بإذنه مداعباً فقال: ((هذا الذي أوفى الله بأُذُنه))[2] وكان من الآيات التي تنزلت في عبد الله بن أُبي وفي قوله والمنافقين معه قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾ [المنافقون].

وكان لعبد الله بن أُبي ولد صالح يسمى عبدالله، من أصحاب النبي ﷺ، فلما علم بما حدث من والده جاء إلى النبي ﷺ قائلاً: إنه بلغني أنك تريد قتل أبي، فإن كنت لا بد فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمتِ الخزرجُ ما كان فيها من رجل أَبرَّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار فقال ﷺ: ((بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا)).[3]

وهذا الحدث يبيّن خطر المنافقين واستغلالهم للأسباب، لإيجاد الفتنة والشقاق بين المسلمين، وتقويض حقوقهم

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن، ج٢/ ١٨٧٦.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٩٢؛ ابن حجر، الإصابة، ج١/ ٥٦٠؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٣/ ١٦٥.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٩٢.

وإضعاف وحدتهم، واستغلال العصبية لذلك، كما أن في تهديد ابن أُبي للرسول ﷺ ومن معه بالإخراج من المدينة أمر واضح بتحين الفرصة للإضرار بالمسلمين وبنبي الله ﷺ، كما أن في تراجعه عما قال وإنكاره له بيان ضعف المنافقين، وقد فضحه الله في قرآن يتلى إلى يوم القيامة.

وفي موقف ابنه عبد الله صدق ووفاء واستعداد للتضحية بكل شيء من أجل النبي ﷺ، حتى ولو كان والده، وهو من أبر الناس به، وفي جواب الرسول ﷺ وتطييبه لخاطر الابن المؤمن حكمة وعطف وحسن تعامل في مثل هذا الموقف الصعب، كما أن الرسول ﷺ أشغل الجيش بالتحرك وأتعبهم في الاستمرار في ذلك مما أرهقهم ليمنع عنهم الجدال والانقسام، فما أعظم القائد ﷺ وأحكمه في مثل هذه المواقف التي تحتاج إلى وقفات وحكمة.

ومن نتائج غزوة بني المصطلق زواج النبي ﷺ بجويرية بنت الحارث، فقد كانت ابنة الحارث بن أبي ضرار سيد قومها، وقد قتل والدها وزوجها في صفوف بني المصطلق أثناء قتالهم للنبي ﷺ، كما سبيت النساء والذرية من قومها، وقد وقعت هي نفسها في سهم ثابت بن قيس بن الشماس الأنصاري ﵁، فكاتبته على عتق نفسها، وكانت تعلم رحمة النبي ﷺ وإحسانه على الناس، فجاءت إليه وقالت: (يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك،

ووقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي، فرقّ رسول الله ﷺ لحالها وعرض عليها أن يؤدي عنها ويتزوجها ليرفع شأنها ويعوضها خيراً مما فقدته من العز والشرف)،[1] ففعل رسول الله ﷺ ذلك وتزوجها، فكان بالفعل شرفاً لقومها وإنهاءً لمعاناتهم، فما إن تزوجها حتى أطلق المسلمون من بأيديهم من سبي بني المصطلق، وقالوا أصهار رسول الله ﷺ، فكانت امرأة مباركة على قومها، تقول عائشة رضي الله عنها: ((أعتق الله بها مائة أهل بيت من بني المصطلق فما أعلم امرأة أعظم منها بركة على قومها)).[2] وقد تعلمت من رسول الله ﷺ فكانت صاحبة عبادة كثيرة الصيام، وقد روي عنها أحاديث عدة، وكانت وفاتها سنة خمسين من الهجرة.[3]

ومن المؤكد أن زواج النبي ﷺ منها كان فيه حسن صلة مع بني المصطلق، ذلك البطن من خزاعة الذي حارب رسول الله ﷺ في وقت كانت فيه بقية خزاعة من حلفاء الرسول ﷺ، فساهم هذا الزواج في تقريبهم للمسلمين وتعاونهم معهم ضد قريش في حربها مع الرسول ﷺ.

---

(١) إبراهيم قريبي، مرويات غزوة بني المصطلق، ص ٣٥١.
وانظر: ابن حجر، الإصابة، ج٤/ ٢٦٥.

(٢) ابن حجر، الإصابة ج٤/ ٢٦٥.

(٣) ابن حجر، الإصابة ج٤/ ٢٦٦؛
وانظر ترجمتها: في المعايشون للرسول ﷺ من هذا الكتاب.

غزوة الحديبية (شوال ٦ هـ)[(١)]

أعلن الرسول ﷺ عزمه على العمرة والتوجه إلى مكة لأدائها بشكل سلمي، ودعا الناس لذلك وخرج بالمهاجرين والأنصار وبعض من انضم إليهم ممن لبوا دعوة النبي ﷺ حتى تجاوز عددهم ألف وأربعمائة رجل.[(٢)] وفي ذي الحليفة أحرم الرسول ﷺ بالعمرة وقلد الهَدْيَ،[(٣)] لتعلم قريش أنه خرج زائراً معتمراً معظماً للحرم غير محارب لأهله.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٠٨؛
والحديبية: قرية على بعد ٢٢ كم غرب مكة على طريق جدة القديم؛ البلادي، معجم المعالم الجغرافية للسيرة النبوية، ص ٩٤.
وانظر تفصيلات أكثر عند: الحكمي، حفاظ بن محمد بن عبدالله، مرويات غزوة الحديبية، المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٠٦هـ.

(٢) صحيح البخاري، حديث البراء بن عازب، ج٥/ ٦٤.

(٣) صحيح البخاري، باب غزوة الحديبية، وقوله تعالى في سورة الفتح: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴿١٨﴾﴾ ج٥/ ٦١.

ورواية ابن أبي شيبة في المغازي عن هشام بن عروة بن الزبير بن العوام من أكثر الروايات تفصيلاً حول أحداث هذه الغزوة، وقد ورد فيها: (خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية، وكانت الحديبية في شوال، قال: فخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بُعسفان لقيه رجل من بني كعب، فقال: يا رسول الله إنا تركنا قريشاً وقد جمعت أحابيشها تطعمها الخزير،[1] يريدون أن يصدوك عن البيت، فخرج رسول الله ﷺ حتى إذا تبرز من عُسفان لقيهم خالد بن الوليد طليعة لقريش، فاستقبلهم على الطريق فقال رسول الله ﷺ: هلمّ هاهنا، فأخذ بين سروعتين ـ يعني شجرتين ـ فمال عن سنن الطريق حتى نزل الغميم،[2] فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فإن قريشاً قد جمعت لكم أحابيشها تطعمها الخزير، يريدون أن يصدونا عن البيت فأشيروا عليّ بما ترون، أتعمدوا إلى الرأس ـ يعني أهل مكة ـ أم ترون أن تعمدوا إلى الذين أعانوهم، فتخالفوهم إلى نسائهم وصبيانهم، فإن جلسوا جلسوا موتورين مهزومين، وإن طلبونا طلبونا طلباً متدارياً ضعيفاً، فأخزاهم الله، فقال أبو بكر: يا رسول الله ﷺ أن تعمد إلى

---

(١) الخزير: حساء الدقيق باللحم والدسم، المعجم الوسيط، ص ٢٣١.

(٢) موضع يقع شمال مكة إلى الجنوب من عُسفان، بقرابة (١٦) كم على طريق المدينة على بعد (١٤) كم من مكة. أنظر: عاتق بن غيث البلادي، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ص٢٦٣.

الرأس فإن الله معينك وإن الله ناصرك وإن الله مظهرك، قال المقداد بن الأسود وهو في رحله: إنا والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكم مقاتلون، فخرج رسول الله ﷺ حتى إذا غشى الحرم ودخل أنصابه بركت ناقته الجدعاء، فقالوا: خلأت ـ أي لم تبرح مكانها ـ، فقال: والله ما خلأت وما الخلأ بعادتها، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش إلى تعظيم المحارم فيسبقوني إليه هلم ههنا ـ لأصحابه ـ فأخذوا ذات اليمين في ثنية تدعى ذات الحنظل، حتى هبط على الحديبية، فلما نزل استقى الناس من البئر، فنزفت ولم تقم بهم فشكوا ذلك إليه فأعطاهم سهماً من كنانته، فقال: أغرزوه في البئر فغرزوه في البئر فجاشت ماؤها حتى ضرب الناس بعطن، فلما سمعت به قريش، أرسلوا إليه أخا بني حليس وهو من قوم يعظمون الهَدْيَ، فقال: ابعثوا الهدي، فلما رأى الهدي لم يكلمهم كلمة، وانصرف من مكانه إلى قريش فقال: يا قوم القلائد والبدن والهدي! فحذرهم وعظم عليهم، فسبّوه وتهجموه، وقالوا: إنما أنت أعرابي جلف لا نعجب منك، ولكنا نعجب من أنفسنا إذ أرسلناك، اجلس ثم قالوا لعروة بن مسعود: انطلق إلى محمد ولا نؤتين من ورائك، فخرج عروة حتى أتاه، فقال: يا محمد! ما رأيت رجلاً من

العرب سار إلى مثل ما سرت إليه، سرت بأوباش الناس إلى عترتك وبيضتك التي تفلقت عنك لتبيد خضراءها، تعلم أني جئتك من كعب بن لؤي وعامر بن لؤي، قد لبسوا جلود النمور عند العوذ المطافيل،[1] يقسمون بالله لا تعرض لهم خطة إلا عرضوا لك أمرّ منها، فقال رسول الله ﷺ: إنا لم نأت لقتال، ولكنا أردنا أن نقضي عمرتنا وننحر هدينا، فهل لك أن تأتي قومك فإنهم أهل قتب، وإن الحرب قد أخافتهم، وإنه لا خير لهم أن تآكل الحرب منهم إلا ما قد أكلت، فيخلون بيني وبين البيت، فنقضي عمرتنا وننحر هَدْينا، ويجعلون بيني وبينهم مدة، تديل فيها نساؤهم ويأمن فيها سربهم، ويخلون بيني وبين الناس، فإني والله لأقاتلن على هذا الأمر الأحمر والأسود حتى يظهرني الله أو تنفرد سالفتي، فإن أصابني الناس فذاك الذي يريدون، وإن أظهرني الله عليهم اختاروا، إما قاتلوا مُعدين، وإما دخلوا في السلم وافرين، قال: فرجع عروة إلى قريش فقال: تعلمن والله ما على الأرض قوم أحب إليّ منكم، إنكم لإخواني وأحب الناس إليّ، ولقد استنصرت لكم الناس في المجامع، فلما لم ينصروكم أتيتكم بأهلي حتى نزلت معكم إرادة أن أواسيكم، والله ما أحب من الحياة بعدكم، فلتعلمن أن

---

(١) العوذ المطافيل: الأمهات اللاتي معهن أطفالهن، والمراد خروجهم مع أطفالهم وأمهات أولادهم ونسائهم ليكون أدعى للثبات وشدة القتال. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ١٣١.

الرجل قد عرض نُصفاً فاقبلوه، تعلمن أني قد قدمت على الملوك ورأيت العظماء فأقسم بالله إن رأيت ملكاً ولا عظيماً أعظم في أصحابه منه، لا يتكلم منهم رجل حتى يستأذنه، فإن هو أذن له تكلم، وإن لم يأذن له سكت، ثم إنه ليتوضأ فيبتدرون وضوءه ويصبونه على رؤوسهم، يتخذونه حَنّاناً، فلما سمعوا مقالته أرسلوا إليه سهيل بن عمرو ومكرز بن حفص، فقالوا: انطلقوا إلى محمد، فإن أعطاكم ما ذكر عروة، فقاضياه على أن يُرجِع عامّة هذا عنا، ولا يخلُص إلى البيت، حتى يسمع من يسمع بمسيره من العرب أنا قد صددناه، فخرج سهيل ومكرز حتى أتياه وذكرا ذلك له، فأعطاهما الذي سألا فقال: اكتبوا ((بسم الله الرحمن الرحيم)) قالوا: والله لا نكتب هذا أبداً، قال: فكيف؟ قالوا: نكتب (باسمك اللهم)، قال: هذه فاكتبوها فكتبوها، ثم قال: اكتب ((هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله له)) فقالوا: والله ما نختلف إلا في هذا، فقال: ((ما أكتب؟)) فقالوا: انتسب، فاكتب محمد بن عبد الله قال: وهذه حسنة اكتبوها، فكتبوها، وكان شرطهم أن بيننا العيبة المكفوفة، وأنه لا إغلال ولا أسلال، قال أبو أسامة الأغلال: الدروع، والأسلال السيوف، ويعني بالعيبة المكفوفة أصحابه يكفهم عنهم، وأنه من أتاكم منا رددتموه علينا، ومن أتانا منكم لن نردده عليكم، فقال رسول الله ﷺ: ((ومن دخل معي فله مثل شرطي))، فقالت قريش من دخل معنا فهو منا، له مثل شرطنا،

فقالت بنو كعب: نحن معك يا رسول الله ﷺ وقالت بنو بكر: نحن مع قريش، فبينما هم في الكتاب إذ جاء أبو جندل[1] يرسف في القيود، فقال المسلمون: هذا أبو جندل، فقال رسول الله ﷺ هو لي، وقال سهيل: هو لي، وقال سهيل: إقرأ الكتاب فإذا هو لسهيل فقال أبو جندل: يا رسول الله! يا معشر المسلمين! أُرد إلى المشركين؟ فقال عمر: يا أبا جندل! هذا السيف فإنما هو رجل واحد فقال سهيل: اعنت عليّ يا عمر! فقال رسول الله ﷺ لسهيل: هبه لي، قال: لا. قال: فأجره لي: قال: لا، قال مكرز: قد أجرته لك يا محمد، فلم ينج).[2]

إن وقائع صلح الحديبية مليئة بالأحداث العظيمة التي أشير إلى بعضها في القرآن الكريم، ومنها بيعة الرضوان، ذلك أن الرسول ﷺ بعث عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى أهل مكة ليخبرهم أن رسول الله ﷺ جاء زائراً للبيت الحرام معظماً له ومعتمراً ولم يأت لقتال، فدخل عثمان مكة في جوار سعيد بن العاص، فبلغ زعماء قريش ما أمره به رسول الله ﷺ، وطلبوا منه أن يطوف بالبيت فرفض رضي الله عنه إلاّ أن يؤذن لرسول الله ﷺ في ذلك،

---

(١) أبو جندل: هو ابن المفاوض القرشي، سهيل بن عمرو، أسلم في مكة، ومنعه أبوه من الهجرة وآذاه وعذبه حتى هاجر، استشهد في معركة اليمامة سنة ١١ هـ. ابن حجر، الإصابة، ج٤/ ٣٤.

(٢) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٤؛ وانظر إلى أجزاء مختلفة من الرواية عند البخاري في صحيحه، ج٥/ ٦٩.

فحاولوا احتباس عثمان ﵁ عندهم،[1] وبلغ الرسول ﷺ أن عثمان قد قتل من قبل قريش فجمع رسول الله ﷺ الناس تحت شجرة للبيعة،[2] وقد تنافس المسلمون في بيعة رسول الله ﷺ حتى أن سلمة بن الأكوع بايع رسول الله ﷺ أكثر من مرة، طمعاً في تكرار أن تلامس يده يد رسول الله ﷺ، ولم يتخلف عن البيعة إلا أحد المنافقين وهو (الجد بن قيس)، وكان مختبئاً تحت ناقته، وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على المؤمنين المبايعين لرسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح]. وقد أثنى الرسول على أهل بيعة الرضوان فقال: ((أنتم اليوم خير أهل الأرض))،[3] وكان رسول الله ﷺ بايع ﷺ لعثمان ضرب إحدى يديه على الأخرى.[4]

وقد كان رسول الله ﷺ مرناً مع قريش في مفاوضته وفي صلحه لدرجة أن عمر بن الخطاب اغتم غماً شديداً لهذا الأمر

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣١٥.
(٢) وضع البخاري في صحيحه، في كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية وقول الله تعالى لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، الآية ج٥/ ٦١؛ ووضع ابن هشام في السيرة عنوان: «بيعة الرضوان»، ج٣/ ٣١٦.
(٣) متفق عليه، انظر: رواية البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، ج٥/ ٦٣؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص٢٨٣.
(٤) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٨٤؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣١٦.

واستغرب وقال يا رسول الله: ألست نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قال ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى، قال عمر: فلم نُعطى الدنية في ديننا؟ قال ﷺ: إني رسول الله ﷺ ولست أعصيه، قال عمر: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به، قال: بلى فأخبرتك أنا نأتيه العام، قال عمر: لا، قال ﷺ: فإنك آتيه ومطوف به، ثم توجه عمر إلى أبي بكر الصديق ووجه له مثل الكلام الأول قائلاً: لم نعطى الدنية في ديننا؟ فرد عليه أبو بكر رد الفقيه العالم العاقل: يا عمر إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه، وهو ناصره فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق.(١)

وحينما انتهى الأمر بالاتفاق على أن لا يعتمر الرسول ﷺ في هذه الرحلة، وإنما يأتي من عام قابل، قال ﷺ لأصحابه: ((قوموا فانحروا ثم أحلقوا))، وكررها على الصحابة، فلم يبادروا في ذلك، حيث كان بعضهم لا يزال يطمع في العمرة، فحز ذلك في نفس الرسول الله ﷺ، فذكره لأم سلمة، فقالت رضي الله عنها: أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم حتى تنحر بدنك وتحلق رأسك، ففعل ﷺ، فلما رأى الصحابة ذلك قاموا سراعاً، فنحروا هديهم وأسرعوا في الحلق.(٢)

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٣١٧؛ وانظر: صحيح البخاري، ج٤/ ٦٩؛ وابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٧٩.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣١٩؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٩٠.

وتوجه الرسول ﷺ عائداً إلى المدينة المنورة، وفي الطريق نزلت عليه سورة الفتح ففرح بها أيما فرح. روى البخاري في صحيحه عن زيد بن أسلم: أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره، وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، وقال عمر بن الخطاب ثكلتك أمك يا عمر، نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات، كل ذلك لا يجيبك. قال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام المسلمين، وخشيت أن ينزل فيَّ قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي قال فقلت لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن. وجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه فقال: «لقد أُنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾.[1]

وقد أكدت الآية والروايات للحديث أن صلح الحديبية فتح مبين، فتح الله به مجال الدعوة في بلاد العرب وفي العالم كافة، حيث أعقبه انضمام بعض القبائل في عقد الروسل ﷺ، كما أعقبه مباشرة كتابة الرسول ﷺ إلى ملوك الأرض،[2] وبالتالي فهي كما سماها الله تعالى فتحاً مبيناً فتح فيه رب العباد لعباده سماع دعوة الله، وقد ورد أن الصديق رضي الله عنه قال: (ما كان فتح في

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، ج٥/ ٦٢؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٧٨.

(٢) انظر: كتب الرسول ﷺ لملوك وزعماء العالم من هذا الكتاب.

الإسلام أعظم من فتح الحديبية ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد، حتى تبلغ الأمور ما أراد). [1] لقد كانت أرباح المسلمين ومكاسبهم من هذا الصلح أعظم من أن تحصى، فهي بينة لا تخفى علمها الله فسماها (فتحاً مبيناً)، كان الصلح اعترافاً بالمسلمين ودولتهم وقائدهم ﷺ، كما كانت هدنة أتاحت للمسلمين فرصة التفرغ للدعوة، والعودة في العام الثاني لأداء الهجرة.

وأما ما جاء من شرط إعادة من أتى من قريش إلى المسلمين بدون إذن وليِّه فقد كان في الظاهر صعباً على المسلمين أما في التطبيق فظهر خلاف ذلك عند أول تطبيق له.

فقد جاءت مجموعة من المسلمين إلى المدينة من مكة من دون إذن أهلهم وكان فيهم أبو بصير عروة بن أسد الثقفي رضي الله عنه، فأرسلت قريش تطلبهم من الرسول ﷺ فسلمه النبي إلى رجلين من قريش، وكان ثابت الإيمان وقال له ﷺ: ((يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم عهداً، ولا يصح في ديننا الغدر وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً))، [2] فخرج أسيراً مع الرجلين، وفي الطريق تمكن من أخذ سيف

---

(١) محمد أبو شهبة ج٢/ ٣٣٨.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٢٣؛ ابن كثير، السيرة النبوية.

أحدهما وقتله، ففر الآخر خائفاً ودخل المدينة مذعوراً فأخبر النبي ﷺ بما حدث فأمنه ﷺ، ثم جاء أبو بصير وقال: يا رسول الله ﷺ قد أوفى الله بذمتك قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم فقال ﷺ: ((ويلُ امِّهِ مُسْعِرُ حربٍ لو كان معه أحد))،[1] ثم خرج أبو بصير إلى نواحي (العيص)[2] على طريق تجارة قريش ناحية الساحل، ولحق به من خرج من المسلمين من قريش، وكوّن منهم فريقاً يقارب السبعين مقاتلاً قطعوا الطريق على قريش وتجارتها، فأرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ تناشده أن يؤويهم إليه،[3] وأعلنت تنازلها عن شرط إرجاعهم، فكان هذا الشرط نصراً للمسلمين، وجعل الله لأبي بصير وأمثاله مخرجاً كما أخبر الرسول ﷺ مع وفاءه ﷺ بعهده.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٢٤؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص٢٩٠.

(٢) مكان يجتمع فيه شجر السدر والعوسج ويسمى عيصاً، وهو مكان ناحية البحر بطريق تجارة مكة إلى الشام كان ملجأ للفارين لكثافة أشجاره وسهولة تخفيهم فيه، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤/ ١٧٣.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٢٤؛ وانظر: صحيح البخاري، باب عمرة القضاء، ج٥/ ٨٥.

رسائل النبي ﷺ إلى زعماء العالم[1]

بُعِث رسول الله ﷺ للعالم كافة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء] يدعو الخلق لعبادة الخالق ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف]، وبالتالي فإن الأمر لا يحتاج إلى معرفة، فالعالم ومكوناته وأحوال البشر فيه واحدة في نظر الخالق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ

(١) أُلّف العديد من الأبحاث والكتب التي عالجت الموضوع منها، جمال الدين ابن أبي حديدة الأنصاري، المصباح المغني في كتاب النبي الأمي إلى ملوك الأرض ومحمد حميد الله، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة؛ خالد سيد علي، رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء.

ﭐللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات]، فالإسلام ونبيه، يدعو الناس إلى الله ويوحدهم تحت عبودية الله ويُذهب الفرقة والتميز ﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾، لا فضل لأحمر على أبيض، (الناس سواسية كأسنان المشط)، ومن هنا فقد كانت معرفته ﷺ بالعالم من حوله وممالكه وأنظمته، وبالقبائل وزعمائها، وبالدول وأحوالها واضحة، وما كان اختياره للحبشة لهجرة أصحابه رغم وجودها خلف البحر في قارة أخرى إلا عن علم بحالها ونظامها ونسبة العدالة في النظام، ومدى تطبيقه لدى ملكها «فإن فيها ملك لا يظلم عنده أحد». [(١)]

بعد صلح الحديبية كتب الرسول ﷺ كتاباً إلى عدد من ملوك العالم، واهتم لذلك، فاختار من أصحابه لكل وجهة من يصلح لها ممن هو خبير بها ويعرفها، وأوصاهم وأشعرهم بالمسؤولية. قال ابن هشام بلغني أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات يوم بعد عمرته التي صُدَّ عنها يوم الحديبية، فقال: (أيها الناس إن الله قد بعثني رحمة وكافة، فلا تختلفوا علي كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم، فقال أصحابه وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟ قال دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلم، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتثاقل، فشكا ذلك عيسى إلى الله فأصبح

---

(١) انظر: الهجرة إلى الحبشة، من هذا الكتاب.

المتثاقلون وكل واحد منهم يتكلم بلغة الأمة التي بعث إليها، فبعث رسول الله ﷺ رسلاً من أصحابه وكتب معهم كتباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام). [1]

ملك الروم

الروم تعد أقوى الدول المعاصرة للرسول ﷺ، وقد تحدث القرآن الكريم عن الروم في سورة أنزلت في مكة وسميت بسورة الروم، وجاء فيها: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم].

كانت تدور الحروب في تلك الفترة بين الروم والفرس في نواحي فلسطين والأردن، وكان حديث العالم عن تلك الحرب.

ومن المعروف أن مصر والشام وشمال أفريقيا كانت ولايات تابعة لإمبراطورية الروم البيزنطية، وقد كان المسيطر الفعلي على الحكم في هذه الإمبراطورية هو الملك نفسه (الإمبراطور) الذي اتخذ القسطنطينية عاصمة له، وكان له الحق في اتخاذ القرارات يساعده في عمله بعض اللجان الفرعية والمستشارون، وكانت الولايات التابعة للدولة تحكم حكمًا

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤ / ٦٠٦، ٦٠٧.

عسكريًا في الغالب، حيث تتوزع معسكرات الجنود على مختلف الولايات.[1]

وكان للحروب بين الفرس والروم قبل الإسلام دور في تقوية النظام العسكري في هذه الدولة، وبالتالي زادت الحاجة إليه، وهذا بالطبع على حساب العامة من الرعية الذين أصيبوا بأضرار كبيرة في العديد من الولايات، في الشام ومصر والجزيرة وغيرها، نظرًا للمد والجزر في الحروب الفارسية الرومية التي استمرت فترة طويلة قبيل الإسلام، كما أن نظام الضرائب المفروض في الولايات الرومية كان يشعر الناس بالإرهاق، فهناك ضرائب على الأراضي، وضرائب على الحيوانات، وضرائب على مختلف الممتلكات، إضافة إلى الضرائب الموضوعة على الرؤوس، كما أنها تجرُّ الشباب جرّاً إلى الحروب وتجند القادرين وتقتل المتخلفين رغم أن الحكام والمحكومين كانوا من النصارى.[2]

وقد ظهر خلال تلك الفترة نظام الملتزمين، الذين يقومون بجباية الضرائب لأنفسهم مقابل التزامهم بمبالغ معينة يدفعونها إلى الدولة، وبالتالي زادوا في الضرائب على الناس، وزادوا في الظلم حتى يفوا بالتزاماتهم التي ضمنوها للدولة.[3]

---

(١) ستيفن رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ٨٩.

(٢) نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية، ص١٧٣.

(٣) رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص١١٢؛ صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص٢٤.

كانت الديانة العامة للدولة ورعاياها هي النصرانية، حيث كان لرجال الدين النصارى مكانة خاصة في الدولة، وفي المجتمعات العامة لما يتميزون به عن بقية الناس، إذ يُعتبرون طبقة عليا لهم حق التصرف في أحوال الناس وفي معاملاتهم، بل وفي عباداتهم أيضًا، كما فُرضت ضرائب على الناس لصالح الكنيسة ورجالها، وكان رجال الكنيسة يفرضون أوامرهم على الناس، ويعاقبون بصرامة كل من تسول له نفسه مخالفة أوامرهم.

وقد وجدت مذاهب نصرانية مختلفة في مملكة الروم، وكثرت بينها الخلافات العقائدية، التي أدت إلى منازعات وصلت إلى مراحل قوية من العداء بين الكنائس، وقد تركزت مذاهب نصرانية معينة في بعض المناطق، وبالتالي وجد نوع من العداء بين بعض الولايات وبعض الشعوب مع دولة الروم.

وقد حاول إمبراطور الروم فرض المذهب اللاهوتي السائد في القسطنطينية على بعض الولايات، وخصوصًا في مصر، مما أوجد كرهًا شديدًا بين الأقباط والرومان وبالتالي فإن كثيراً من الناس في الدولة يحسون بالظلم والاضطهاد نتيجة تدخل الدولة في الشؤون الدينية، وتأييدها لبعض المذاهب ضد البعض الآخر، ونتيجة لسيطرة الكنيسة ورجال الدين فيها على الناس وتحكمهم فيهم، إضافة إلى فرض الضرائب الزائدة لصالح الكنيسة بطريقة ظالمة.[١]

---

(١) العُمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص٩٧، ٩٨، ٩٩؛ أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وأخلاقهم، ج١/ ١٣٨.

كان ملك الروم وزعيمهم وإمبراطورهم في العصر النبوي هرقل ٦١٠م ـ ٦٤١م، وهو من أسرة يونانية، ولد في قرطاجنة ـ تونس حالياً ـ وكان والده حاكماً يونانياً عليها، وقد استدعي هرقل إلى العاصمة القسطنطينية، ومُلك على الروم في فترة صراع مع الفرس، وقد نجح في هزيمة الفرس واستعادة قوة الروم مرة أخرى وهيبتها: ألم ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الروم].

كان ذلك سنة ٦١٦م، وكان هرقل قائداً نصرانياً، تمكن من استعادة الصليب المقدس لديهم،الذي يزعمون أن المسيح صلب عليه، فسُر عامة النصارى بذلك وأقاموا الاحتفالات في كل مكان،[١] وخصوصاً في القدس، حيث وصله في الفترة نفسها كتاب الرسول ﷺ، وكان مما جاء فيه كما ثبت في «الصحيحين» أنه كتب إلى هرقل: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى،أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلمْ تسلمْ يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ

(١) انظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ٢٩٦؛ ود. علي العتوم، تجربة مؤتة، ص ٩٢.

بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ [آل عمران]))[1] والأريسيون هم الأجراء والعمال والفلاحون وعوام الناس والمستضعفون بوجه عام، الذين يحول هرقل بينهم وبين سماع الإسلام.

وقد وجه رسول الله ﷺ دحية بن خليفة الكلبي بالرسالة إلى هرقل، وكان دحية من قوم محتكين بالروم في الشام، حيث تقع قبيلته كلب في الأطراف الجنوبية لبلاد الشام،[2] وبالتالي يعرف كيفية الوصول إلى الإمبراطور هرقل والحديث معه.

ولما وصل كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل فزع فزعاً شديداً، وهو من علماء النصارى المعدودين فيهم، مع كونه ملكهم واهتم للرسالة وحاول الحصول على أكبر قدر من المعلومات، فطلب أن يؤتى بأحد من قوم النبي ﷺ وممن يعرفونه، وكان أبو سفيان بن حرب ـ ولم يسلم بعد ـ في نواحي بيت المقدس في تجارة لقريش بعد صلح الحديبية، فجيء به مع من معه من تجار قريش إلى هرقل لكي يسأله عن النبي ﷺ، فلما كانوا بحضرة هرقل سأل وناقش عن طريق الترجمان، وقد أورد البخاري ذلك فقال: (إن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام ـ في المدة التي كان رسول

---

(١) البخاري، صحيحه، كتاب بدء الوحي، من الحديث رقم (٧)؛ ابن القيم، زاد المعاد، ج٣/ ٦٨١.

(٢) السمعاني، الأنساب، ج١٠/ ٤٥٢.

الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء[1] فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً. فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه، فأجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه. فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذباً لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقولوا آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف

---

(١) بيت المقدس.

والصلة. فقال للترجمان: قل له سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت: أن لا. فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قَبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت: أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت: أن لا. فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف. فان كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميَّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل فقرأه، فإذا فيه: ((بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل

عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فاني ادعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران])، قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات وأُخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمرَ أمرُ ابن أبي كبشة، أنه يخافه ملك بني الأصفر. فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام).(١)

وتدل روايات مختلفة على وجود نقاش خاص بين هرقل وبين دحية الكلبي على انفراد، جرى فيها الحديث عن الإسلام ونظرته للمسيح ومن يُصلّي له المسيح، وخوفه بالله وسوء العاقبة عليه وعلى ملكه وعلى آخرته.

وأن هرقل ناور وكتب كتاباً إلى النبي ﷺ وأرسل له بهدية مع دحية، فقسمها على المسلمين، وقال عنه: كذب عدو الله هو على نصرانيته.(٢)

---

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ج١/ ٤.

(٢) انظر: جمال الدين بن أبي حديدة الأنصاري، المصباح المضيء في كتاب النبي الأمي إلى ملوك الأرض، ص ١٩٨.

ورغم شك المؤرخين بمثل هذه الرواية التي لم ترد بسند واضح عند المحدثين وتفصيلاتها إلا أنه من الطبيعي جلوس هرقل مع دحية حامل الرسالة ومناقشته خصوصاً أنه ظهر في رواية البخاري وغيره اهتمام هرقل بالأمر ما يدل على قناعته بصدق الرسول ﷺ وإن لم يُظهر الإسلام.

لقد كان واضحاً معرفة هرقل بصدق النبي ﷺ وأنه ما دعا إلا إلى حق، وأنه نبي المختتنين، نبي آخر الزمان. وكان على يقين بنصر الله له وبأن الله سيحقق له ما وعد من انتشار دينه وغلبة دعوته، ولذلك سمع منه أبو سفيان ما سمع في وقت كان فيه على الشرك وزعيماً لقريش المحاربة لرسول الله ﷺ، وبالتالي وقع في نفس أبي سفيان خشية النبي ﷺ، وشيء من معرفة الحق لما رأى خوف هرقل وحديثه فقال: (هذا ملك بني الأصفر يخافه) وكان أبو سفيان حتى تلك اللحظة من أعداء الرسول ﷺ، فأدرك أنه عدو لمن يخشاه أعظم ملوك الأرض في زمانه.

وقد كان هرقل مهموماً متردداً بين الإيمان بالرسول ﷺ والانقياد لأوامر المسيح بالإيمان بآخر الأنبياء، وبالتالي كسْب الإسلام مع النصرانية السابقة، أو عدم الإيمان ومعصية الله ورسوله وتقديم الحياة الدنيا على الآخرة، ومجاملة سياسيي الروم، والإذعان لهم من أجل البقاء على دفة السلطة، ولذلك أراد أن يجرى امتحاناً لقواد الروم وهل ينقادون معه للإيمان

بالرسول ﷺ، فقد حدث أحد أساقفة نصارى الشام ويسمى ابن الناطور وكان من أصحاب هرقل قال: (ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية، وكان نظيره في العلم وسار هرقل إلى حمص فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي، وأنه نبي فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة[1] له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم اطلع، فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأَيِسَ من الايمان قال: ردوهم عليّ، وقال: إني قلت مقالتي آنفاً اختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه).[2]

وهكذا صدق في هرقل قوله تعالى في سورة الروم ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم] وقوله تعالى في سورة الروم ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ

---

(١) الدسكرة: بناء خاص يقيمه الملوك في بلاد الروم للمناسبات والاحتفالات، المعجم الوسيط ص٢٨٣.

(٢) انظر: صحيح البخاري، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ج١/ ٤؛ وانظر: شروحات وروايات ابن حجر على الحديث في فتح الباري، وانظر: رواية الإمام مسلم في صحيحه، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، ج٥/ ١٦٤.

ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [الروم] وفي قوله في سورة الروم: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴿٥٧﴾﴾ [الروم].

ولعل الإنسان يتوقف قليلاً مع هذه الشواهد القرآنية في سورة الروم، ويرى أن ورودها في سورة الروم كأنما يشير لموقف ملكهم وزعمائهم وفي ذلك آية عظيمة لمن اعتبر.

وقد تحدث هرقل بوضوح عن انتصار للمسلمين قادم في مستقبل الأيام القريبة، وامتداد لهم فيما تحت قدميه ويعني بذلك فلسطين وبقية بلاد الشام.

فكان أول احتكاك عسكري بين الروم والمسلمين في معركة مؤتة، التي قادها زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وصاحبه ومن أحب الناس إليه ﷺ، وكانت نتيجة تلك المواجهة الأولى استشهاد عدد من أصحاب رسول الله ﷺ، منهم زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة، وكان من الواضح خشية هرقل من متابعة المسلمين وقتالهم، فرغم قوته ومتابعته للفرس في معاركه حتى اقتحم عليهم بلادهم، إلا أنه لم يحرص على الاحتكاك بالرسول وجنده ﷺ ومواجهتهم، ولعل القرآن الكريم في سورة الروم أشار وحذر أصحاب القوى الظالمة عامة، ومنهم الروم في سورة سميت باسمهم في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ

أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الروم].

نعم والله إنني لأحس أن هذه الآيات كأنما هي موجهة للروم أولهم وآخرهم الذين عمروا الأرض، فلما كذبوا بآيات الله كانت عاقبتهم سيئة، حيث ظلموا أنفسهم فأورث الله المسلمين أرضهم، بعد أن كذبوا بآيات الله، وعاد جيش رسول الله ﷺ من مؤتة ليقابله شباب المدينة بقولهم: أيها الفرارون فيدافع عنهم ﷺ بقوله: ولكنهم كرارون إن شاء الله،[1] فيرجع خالد بعد سنوات ليقود المسلمين في أكبر معاركهم مع الروم في موقعة اليرموك، فكان سيفاً من سيوف الله كما أخبر الرسول ﷺ،[2] وكان ذلك الحديث من الرسول عن كرَّتهم المقبلة في اليرموك وغيرها وحدوث ذلك معجزة من معجزات المصطفى ﷺ، وما أكثرها لمن تمعن.

ثم جاء الاحتكاك الثاني عسكرياً في أيام الرسول ﷺ في غزوة تبوك، التي قادها الرسول ﷺ بنفسه، وكان معه أكبر جيش عرفه المسلمون في زمانه، وكان هدفه الروم وأطراف دولتهم الجنوبية، إذ إن تبوك على حدود بلاد الشام، حيث عسكر الرسول ﷺ ومن

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٨٢، الواقدي، المغازي ج٢/ ٧٦٥.
(٢) صحيح البخاري، فتح الباري، ج ١٦/ ١٠٠.

معه قرابة الخمسة عشر يوماً، بث خلالها العديد من السرايا في المناطق المجاورة واتصل بعدد من زعماء المدن والقبائل المحيطة والداخلة في حدود الروم، وعقد معهم معاهدات واتفاقيات خاصة على مسمع من هرقل ومرأى منه، حيث ذكرت الروايات عدم احتكاك الروم بجيش الرسول ﷺ، حيث أصيب بهزيمة معنوية، رغم قوته العسكرية وقدرته على المواجهة.

وقد ورد أن رسول الله ﷺ كتب لهرقل وهو في تبوك يخيره بين إحدى ثلاث، إما أن يسلم وله ما في يديه من ملكه، وإما أن يؤدي الخراج، وإما أن يأذن بحرب، فجمع هرقل بطارقته وقسيسيه في قصره وأغلق عليهم الباب وقال لهم: إن محمداً بعث إليَّ يخيرني إلى إحدى ثلاث، إما أن أسلم ولي ما تحت قدمي من ملكي وإما أن أرسل إليه الخراج، وإما أن آذن بحرب، وقد تجدون في كتبكم بأنه سيملك ما تحت قدمي من ملكي، فنخروا نخرة حتى أن بعضهم خرجوا من برانسهم، وقالوا: نحن نرسل إلى رجل من العرب جاء في برديه ونعله بالخراج؟! فقال هرقل: اسكتوا إنما أردت أن اعلم تمسككم بدينكم ورغبتكم فيه.[1]

---

(١) ابن زنجويه، الأموال، ص ١٢٣ ـ ١٢٥؛ وانظر تخريج الرواية عند: محمد عبد الله عنان الصبحي، مرويات الوثائق المكتوبة من النبي ﷺ، (رسالة دكتوراه الجامعة الإسلامية بالمدينة)، ص ٦٤٥؛ وقد أورد الطبراني في معجمه نص رسالة لهرقل يحتمل أنها هذه الرسالة (انظر: المعجم الكبير، ج٨/ ١٤ ـ ١٦).

ولعل هذا هو الاختبار الثاني من هرقل في محاولة منه لالتماس استجابة من زعماء الروم للنبي ﷺ، فلما رأى رفضهم آثر الملك والدنيا على أمر الله ودينه.

وتذكر الروايات أنه نتيجة لذلك وصل مبعوث من هرقل إلى رسول الله ﷺ أثناء إقامته في معسكره بتبوك، وقد أورد الإمام أحمد في مسنده حديثاً طويلا عن رجل من نصارى العرب بعثه هرقل إلى النبي ﷺ في تبوك عنونه بـ (حديث التنوخي عن النبي ﷺ قال الراوي فيه: (بحمص، وكان جاراً لي شيخاً كبيراً قد بلغ الفند[1] أو قرب، فقلت: ألا تخبرني عن رسالة هرقل إلى النبي ورسالة رسول الله إلى هرقل؟ فقال: بلى قدم رسول الله تبوك، فبعث دحية الكلبي إلى هرقل، فلما أن جاءه كتاب رسول الله دعا قسيسي الروم وبطارقتها، ثم أغلق عليه وعليهم باباً، فقال: قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم، وقد أرسل إليّ يدعوني إلى ثلاث خصال: يدعوني إلى أن أتبعه على دينه، أو على أن نعطيه مالنا على أرضنا والأرض أرضنا، أو نلقي إليه الحرب، والله لقد عرفتم فيما تقرؤون من الكتب ليأخذن ما تحت قدميّ، فهلم نتبعه على دينه، أو نعطيه مالنا على أرضنا، فنخروا نخرة رجل واحد، حتى خرجوا من برانسهم، وقالوا: تدعونا إلى أن ندع النصرانية أو نكون عبيداً لأعرابي جاء من الحجاز، فلما ظن أنهم إن خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم

---

(١) الفند: شدة الكبَر ويعني: طاعن في السن.

رفأهم،[1] ولم يكد! وقال إنما قلت ذلك لكم لأعلم صلابتكم على أمركم، ثم دعا رجلاً من عرب تجيب كان على نصارى العرب، فقال: ادع لي رجلاً حافظاً للحديث عربي اللسان أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه، فجاء بي فدفع إلى هرقل كتاباً، فقال: اذهب بكتابي إلى هذا الرجل فما ضيعت من حديثه فاحفظ لي منه ثلاث خصال، انظر هل يذكر صحيفته التي كتب إلي بشيء؟ وانظر إذا قرأ كتابي فهل يذكر الليل؟ وانظر في ظهره هل به شيء يريبك، فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوك فإذا هو جالس بين ظهراني أصحابه محتبياً على الماء فقلت: أين صاحبكم، قيل: ها هو ذا، فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه فناولته كتابي فوضعه في حجره، ثم قال: ممن أنت؟ فقلت أنا أحد تنوخ، قال هل لك في الإسلام الحنيفية ملة أبيك إبراهيم، قلت: إني رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم، فضحك وقال: إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين، يا أخا تنوخ إني كتبت بكتاب إلى كسرى فمزقه، والله ممزقه وممزق ملكه، وكتبت إلى النجاشي بصحيفة فخرقها والله مُخْرِقُه،[2] ومُخْرِقُ ملكه، وكتبت إلى

---

(١) ترفق بهم، وهدأهم وأرضاهم.

(٢) من المعروف وجود أكثر من ملك للحبشة زمن النبي ﷺ أحدهم الذي أسلم على يد جعفر بن أبي طالب، والذي يشير له الحديث ملك آخر غيره إذ أنه من الثابت وفاة الأول وصلاته ﷺ عليه صلاة الغائب، انظر: الهجرة إلى الحبشة من هذا الكتاب.

صاحبك بصحيفة، فأمسكها فلن يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير، قلت: هذه إحدى الثلاثة التي أوصاني بها صاحبي وأخذت سهماً من جعبتي فكتبتها في جلد سيفي، ثم إنه ناول الصحيفة رجلاً عن يساره، قلت: من صاحب كتابكم الذي يقرأ لكم قالوا: معاوية فإذا في كتاب صاحبي: تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، فأين النار فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار؟ قال: فأخذت سهما من جعبتي فكتبته في جلد سيفي، فلما أن فرغ من قراءة كتابي قال: إن لك حقاً وإنك رسول، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها إنا سفر مرملون قال: فناداه رجل من طائفة الناس قال: أنا أجوزه ففتح رحله فإذا هو يأتي بحلة صفورية فوضعها في حجري قلت: من صاحب الجائزة؟ قيل لي: عثمان، ثم قال رسول الله ﷺ: أيكم ينزل هذا الرجل؟ فقال: فتى من الأنصار أنا فقام الأنصاري وقمت معه حتى إذا خرجت من طائفة المجلس ناداني رسول الله ﷺ وقال: تعال يا أخا تنوخ، فأقبلت أهوي إليه، حتى كنت قائماً في مجلسي الذي كنت بين يديه فحل حبوته عن ظهره وقال: ها هنا امْضِ لما أُمرت له، فجِلت في ظهره فإذا أنا بخاتم في موضع غضروف الكتف مثل الحجمة الضخمة). (١)

ومن الواضح تعدد المراسلات بين النبي ﷺ وهرقل،

---

(١) الإمام أحمد، مسنده، ص ٤١١، ٤٤٢.

وبروز اسم دحيه الكلبي كحامل للرسائل ومحاور لهرقل،[١] وقد ذكر أن دحيه الكلبي حمل كتاباً إلى هرقل في آخر حياة الرسول ﷺ، وكان هرقل متردداً في الرد على الرسول حتى أتاه خبر وفاة رسول الله ﷺ.[٢]

وقد عاش هرقل بعد ذلك حتى رأى بنفسه وقوع أجزاء كبيرة من مملكته في الشام وفي فلسطين وبيت المقدس خصوصاً بيد المسلمين، وصدق قوله ليملكنّ ما تحت قدمي هاتين، فكانت البداية في خلافة أبي بكر، والتمام في عهد عمر من بعده رضي الله عنهم أجمعين، حيث أطلق هرقل حسرة وهو يخرج من أرض الشام تاركاً إياها للمسلمين الذين أخذوها بالقوة مودعاً وداعاً أبدياً: «سلام عليك يا أرض سوريا تسليم الوداع، لا لقاء بعد اليوم».[٣]

وقد ذُكر أن هرقل احتفظ بكتاب النبي ﷺ وأوصى بحفظه من بعده، فما زالت ملوك الروم تتناقله قروناً عديدة، وكانوا يعرضونه على بعض المسلمين من وفود الخلفاء والسلاطين،[٤]

(١) انظر: فاروق حمادة، العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، ص٤٥.
(٢) السهيل، الروض الأنف، ج٤/ ٢٤٩.
(٣) الأزدي، فتوح الشام٢٣١، الطبري، تاريخه، ج٤/ ٣٨
ابن حجر، فتح الباري، ص ٤٣؛ الطبري، تاريخه، ج٤/ ١٥٦.
(٤) السهيلي، الروض الأنف، ج٢/ ١٩٧؛ ابن حجر، فتح الباري، ج١/ ٤٤؛ وانظر: فاروق حمادة، العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، ص٤٦، ٤٧؛ والكتاني، التراتيب الإدارية، ج١/ ١٦٠.

وقد ظهرت النسخة الأصلية من هذا الخطاب النبوي وأجريت عليه أبحاث ودراسات رجحت صحة النسخة.[1]

كتاب الرسول ﷺ إلى كسرى فارس[2]

فارس دولة قوية، ملاصقة لبلاد العرب، فرضت حكمها على بعض المناطق داخل الجزيرة العربية، في فترات زمنية متعددة، وخصوصاً في اليمن والبحرين.

وقد مرت بمراحل حضارية مختلفة، يهمنا منها السنوات التي سبقت احتكاك هذه الدولة بالإسلام عن طريق الدعوة والفتوح والجهاد. وكانت الديانة السائدة في دولة فارس والمناطق الخاضعة لها هي المجوسية، وهي ديانة قائمة على عبادة النار وتقديسها، كما وجدت فيها ديانات أخرى كاليهودية، والنصرانية، انتشرت بين العرب الخاضعين لها في العراق والبحرين وغيرهما.

وكانت هذه الدولة تسيطر على فارس، وخراسان والعراق وبعض الأجزاء من أطراف الجزيرة العربية شرقيها وجنوبها.

وقد قام نظام الحكم الفارسي على تنظيم ملكي استبدادي،

---

(١) محمد حميد الله، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص١٠٨.

(٢) وضع البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، ج٥/١٣٦.

يقوم على التمييز بين الناس وتقسيمهم إلى طبقات مختلفة لكل منها حدود معينة من الحقوق والامتيازات والواجبات.[١]

وكان الملك الساساني الفارسي في نظرهم صاحب حق إلهي، يفرض ما يشاء من نظام، ويوقع ما يشاء من عقوبات في حق مخالفيه، كما كان الملك يشرف بنفسه على التفرقة بين الناس حسب النظام الطبقي المتبع، وكل من يخالف ذلك يتعرض لعقوبات تصل إلى حد القتل أحيانًا، حتى أن من ينتمي إلى الأسرة الحاكمة نفسه لا يستطيع تجاوز ذلك، فلو تجرأ وحاول أن يتزوج من العامة مثلاً، فإنه يتعرض لعقوبة صارمة قد تودي بحياته لخلطه الدماء المقدسة ـ كما يزعمون ـ بدماء العامة.[٢]

وبناء على هذه التفرقة كان الكثير من الظلم يقع على الناس في عموم أنحاء الدولة، وعلى الضعفاء منهم خصوصًا.

وقد كانت الدولة تعتمد على جيش قوي ومنظم، يميز أفراده عن بقية الناس في الحقوق، والاحترام، وغير ذلك.[٣]

وكان يدير دفة الحكم الملك بنفسه، يساعده حكام

---

(١) صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص٣٠؛ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني، ج١/ ٤١٥.

(٢) د. يحيى الخشاب، تفسير أقدم نص عن النظم الفارسية قبل الإسلام، ص٤٨.

(٣) يحيى الخشاب، مصدر سابق، ص٤٨.

الولايات إضافة إلى بعض الأمراء والقواد في مختلف أقاليم الدولة، وهم في الغالب من ملاك الأراضي والقرى الواسعة، الذين يقومون بجباية الضرائب من العمال والفلاحين وعامة الناس إلى خزينة الدولة، كي تخدم الجيش والملك وحاشيته، في ترفهم الذي لم يكن له نظير، حيث اشتهر عن ملوك الفرس جمعهم للكنوز والذخائر وإسرافهم الشديد في الملابس والأطعمة، حتى ضرب بترفهم المثل، وكان الترف يدفعهم إلى فرض المزيد من الضرائب على المزارعين والعامة، وبالتالي زاد شعور الناس بالظلم نتيجة ما يؤخذ منهم، إضافة إلى ما كانوا يدفعونه من ضرائب على رؤوسهم تشبه الجزية.(١)

وقد دخلت الدولة الفارسية قبيل الفتح الإسلامي في حرب شديدة مع الروم، أثرت على الدولة، ودفعتها إلى فرض المزيد من الضرائب والمكوس على رعاياها، ما زاد من سخط الناس وإحساسهم بالظلم، ومهد ذلك للمقارنة مع عدل المسلمين عند الفتح. وكانت القوة العسكرية للفرس في أشدها زمن النبي ﷺ نتيجة لاستعداداتها في حربها مع الروم.(٢)

أما كسرى الذي عاصر الرسول ﷺ وكتب له كتباً فهو كسرى (أبرويز) وتعني المظفر وهو ابن هرمز الرابع حفيد كسرى

---

(١) ارثر كرستنسن، إيران في عهد الساسانيين، ص٥٨.

(٢) عبد العزيز العُمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص٩٥ ـ ٩٧.

الأول المعروف بـ (أنو شروان)، وصل إلى ما لم يصل إليه سلفه من تدويخ الدولة المنافسة الروم (البيزنطيين) وبلغ انتصاره ومجده أوجهما في سنة ٦١٥م، حتى نجح هرقل في دحر الفرس عن بلاده والهجوم المنتصر على مركز المملكة الساسانية ما اضطر كسرى أبرويز أن يغادر عاصمته ويلجأ إلى مكان آمن، ولكنه ما لبث أن قتل في ثورة ٦٢٨م بعد وصول رسالة رسول الله ﷺ.[١]

وقد كان ملكاً قوياً جباراً (من أشد ملوكهم بطشاً، وأنفذهم رأياً، وأبعدهم غوراً، وبلغ فيما ذكر من البأس والنجدة والظفر وجمع الأموال والكنوز ومساعدة القدر، ومساعدة الدهر إياه ما لم يتهيأ لملك أكثر منه).[٢]

بعد صلح الحديبية كان ضمن الرسائل التي بعثها رسول الله ﷺ إلى الزعماء والملوك الكتابة إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمي،[٣] فأمره أن يدفعوا إلى عظيم البحرين فدفعها عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يمزَّقوا، وجاء في كتابه ﷺ إلى كسرى ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله

---

(١) أبو الحسن الندوي ص٢٩٨.

(٢) الطبري، تاريخه، ج٢/ ١٣٧.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٦٠٧؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٥٧.

إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله. أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ليُنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس)).[١] فلما وصل كتاب رسول الله ﷺ إلى كسرى أبرويز وقرئ عليه أخذه الكِبر والجبروت، وغضب على الرسول ﷺ ومزق كتابه، فكانت دعوة رسول الله ﷺ عليه (أن يُمزّقوا كل مُمَزّق).[٢] ولم يقف عند هذا الحد في تكبره وتجبره، فكتب إلى باذان عامله على اليمن ـ وكانت للفرس سيطرة عليها منذ سنة ٥٧٥م ـ.[٣]: (ابعث من عندك رجلين إلى هذا الرجل بالحجاز).[٤] وكان هدفه أسر الرسول ﷺ والإتيان به ليعاقبه بما يريد، فبعث باذان من اليمن رجلين شديدين إلى رسول الله ﷺ. ويصف ابن كثير وصولهما إلى الحجاز فيقول: (فخرجا حتى قدما الطائف فوجدا رجلاً من قريش في أرض الطائف فسألوه عنه فقال: هو بالمدينة واستبشر أهل الطائف يعني وقريش بهما، وفرحوا وقال بعضهم لبعض: أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك كفيتم الرجل، فخرجا حتى قدما على رسول الله ﷺ،

---

(١) ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٥٦؛ ابن سعد، الطبقات، ج١/ ٢٦٠؛ ابن القيم، زاد المعاد، ج٣/ ٦٨٨.

(٢) من رواية البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، ج٥/ ١٣٦.

(٣) عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع، اليمن في صدر الإسلام ص٢٨.

(٤) ابن حجر، فتح الباريء، ج ١٦/ ٢٥٧.

فكلمه باذويه فقال: شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك. وقد بعثني إليك لتنطلق معي، فإن فعلت كتب لك إلى ملك الملوك بكتاب ينفعك ويكفه عنك، وإن أبيت فهو من قد علمت، فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك. و دخلا على رسول الله ﷺ وقد حلقا لحيتيهما وأعفيا شاربيهما فكره النظر إليهما وقال: «ويلكما من أمركما بهذا؟! قالا: أمرنا بهذا ربنا ـ يعنيان كسرى ـ فقال رسول الله ﷺ: لكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي» ثم قال: «ارجعا حتى تأتياني غدًا قال: وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء: أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله.[1]

قال فدعاهما فأخبرهما، فقالا: هل تدري ما تقول؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا، فنكتب بها عنك بهذا ونخبر الملك باذان؟ قال: «نعم أخبراه ذلك عني وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهي إلى الخف والحافر» وقولا له: إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك وملّكتك على قومك من الأبناء ثم أعطى خرخرة منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك. فخرجا من عنده، حتى قدما على باذان، فأخبراه الخبر فقال: والله ما هذا بكلام ملك، وإني لأرى الرجل نبيًا كما

---

(١) من رواية ابن أبي شيبة، في المغازي، ص١٥٥؛ وانظر: ابن سعد، الطبقات، ج١/ ٢٦٠.

يقول وليكوننّ ما قد قال، فلئن كان هذا حقًا فهو نبي مرسل، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا. فلم ينشب باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه: أما بعد فإني قد قتلت كسرى ولم اقتله إلا غضبًا لفارس، لما كان استحل من قتل أشرافهم ونحرهم في ثغورهم فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك، وانطلق إلى الرجل الذي كان كسرى قد كتب فيه فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه.

فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول الله، فأسلم الأبناء من فارس من كان منهم باليمن، قال: وقد قال باذويه لباذان: ما كلّمت أحداً أهيب عندي منه، فقال له باذان: هل معه شرط؟ قال لا.[1]

وتذكر الروايات أن قتل كسرى الذي أشار إليه الرسول ﷺ كان على يد ابنه شيرويه ليلة الثلاثاء لعشر ليالٍ من جمادى الآخرة سنة تسع للهجرة.[2]

وقد ورد أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسي بيده لتنفِقُنَّ كنوزهما في سبيل الله)).[3] كما يشير الرسول ﷺ إلى سقوط المدائن عاصمة الفرس في يد المسلمين في قوله:

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ٥٠٩، ٥١٠.

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ٥١٢.

(٣) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٣/ ٥١٣.

(لتفتحنّ عصابةٌ من المسلمين كنوز كسرى في القصر الأبيض).[1]

وأما رد فعل باذان ملك اليمن بعد وصول الرسولين إليه فكان السماع منهما لتقرير دقيق عن ما رأيا من حال رسول الله ﷺ وسمعا ممن حوله، ولا يستبعد أنهما سمعا من سلمان الفارسي رضي الله عنه وهما من الفرس ومن غيره، كما جاءت الأخبار إلى باذان ومن معه من الفرس في اليمن بقتل أبرويز في الليلة التي أخبر بها رسول الله ﷺ، وورد أن باذان أسلم وقال: (إن هذا لرسول)،[2] (وإن كان حقاً فلا يسبقني أحد من الملوك في الإيمان به)، فأسلم وأسلمت الأبناء معه من فارس اليمن.[3]

وتذكر الروايات أنه وفد بعضهم على رسول الله ﷺ في المدينة في أواخر حياته،[4] كما كان لأبناء باذان وغيره من أمراء الفرس في اليمن دور كبير في الوقوف مع أمراء الرسول ﷺ معاذ ابن جبل وغيره من الأمراء رضي الله عنهم أثناء ولايتهم اليمن للرسول ﷺ.

كما شاركوا في القضاء على ردة الأسود العنسي الكذاب مدعي النبوة، وإعادة الإسلام إلى اليمن بعد ردة الكثيرين من القبائل في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقاموا مع نسائهم بقتل

---

(١) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٤٢.
(٢) انظر: ترجمته عند ابن حجر في الإصابة، ج١/ ١٧٠.
(٣) ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ٥١٠.
(٤) الطبري، تاريخه، ج٢/ ٦٥٦.

الأسود العنسي الكذاب، وكان باذان على رأس هؤلاء من أبناء الفرس (واحتزّوا رأسه ثم علا سور المدينة حين أصبح فقال: الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن الأسود كذاب عدو الله، فاجتمع أصحاب الأسود فألقى إليهم رأسه فتفرقوا إلا قليلاً). (١)

وقد بدأ المسلمون فتوحهم في بلاد فارس أثناء خلافة أبي بكر الصديق ﵁، وكانت أشد المعارك معهم معركة القادسية، التي قادها من جانب المسلمين سعد بن أبي وقاص ﵁، ومن جانب الفرس قائدهم المشهور (رستم). وكانت أهداف المسلمين واضحة، وإيمانهم بوعد رسول الله ﷺ بفتح فارس وإسقاط مُلكها وتمزيقه وإعادة الحق إلى عباد الله وتحريرهم من عبودية البشر معروفة عند أواسط المسلمين.

وفي زمن الخليفة عمر بن الخطاب ﵁، وقبل معركة القادسية طلب رستم وفودًا من المسلمين ليستمع إليهم ويحاورهم، ويسمع منهم بنفسه مباشرة، وكان من هؤلاء ربعي ابن عامر الذي اشتهر كمبعوث للمسلمين في أحد اللقاءات، حيث استعد رستم للقائه، وأعد مجلسه الفخم لهذا الأمر وزينه بالنمارق المذهبة والحرير، وأظهر اللآلئ والمجوهرات، ووضع الزينات المختلفة وفرشت البسط المزركشة بالذهب والفضة.

(١) البلاذري، فتوح البلدان ص١١٤.

وجلس رستم للمقابلة في وسطها على سرير من الذهب، وأقبل ربعي بن عامر على مجلس رستم عليه ثياب بالية مرقعة، يحمل سلاحًا متواضعًا ويركب فرسًا صغيرة، فلما وصل إلى مجلس رستم، دخل بفرسه إلى المجلس وداس بها على الديباج والحرير، ثم انتزع شيئًا من الحرير الذي في البسط وربط به فرسه وأقبل على رستم ومعه سلاحه، فقال له الفُرْسُ ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم وإنما أنتم دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، فأمرهم رستم أن يتركوه، فأقبل على رستم وهو يتوكأ على رمحه فوق البسط والنمارق حتى خرق بعضها، فقال له رستم محاورًا: ما جاء بكم؟ فقال ربعي: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله. قال رستم: وما موعود الله؟ قال ربعي: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. فقال رستم: هل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟ قال ربعي: نعم ننظركم ثلاثة أيام، فطلب رستم الزيادة فقال ربعي: ما سنَّ لنا رسول الله أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث. فقال له رستم أسيدهم أنت؟ فقال ربعي: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم. واجتمع رستم بقواده بعد ذلك وتدارس الأمر

معهم وقرروا قتال المسلمين، وعدم قبول عرضهم الإسلام أو الجزية، واستعد الفريقان للقاء وقد اشتبك المسلمون والفرس في قتال مرير انتهى بانتصار المسلمين،(١) تلى ذلك سقوط عاصمتهم.

حيث توجه المسلمون لفتح المدائن عاصمة الفرس، ووصل المسلمون إليها، وكان يفصلهم عنها نهر دجلة، وقد حطم الفرس ما عليه من جسور ليتحصنوا، ومع هذا فقد حاصرها المسلمون أشهراً عدّة، كانوا خلالها يفتحون في المناطق القريبة منها، كما كان الفرس خلالها يعملون على تفريغ المدائن من كنوزها وخزائنها، كما فر خلال الحصار يزدجرد ملك الفرس، ومع ذلك فقد كان الدفاع عن المدائن منظمًا وقويًا.

وقد عبر المسلمون النهر لاقتحام المدائن تحت قيادة سعد ابن أبي وقاص ﵁، وهم على خيولهم مما أفزع الفرس، ودفع بعضًا منهم إلى الفرار، ثم تمكن المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص من دخول المدائن، وتوجه إلى القصر الأبيض، وفيه إيوان كسرى المشهور ودخل سعد القصر متواضعًا متذللاً لله وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٢٦ ـ ١٢٨؛ الطبري، تاريخه، ج٤/١٠٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٢/٤٦٣.

كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان]. وقد رفع سعد ﵁ الأذان معلنًا كلمة التوحيد في ذلك القصر، وصلى المسلمون جماعة في إيوان كسرى ومجلسه الضخم، وأُخمدت نيران المجوسية وأقام صلاة الجمعة فيه، وقد حصل المسلمون على غنائم كثيرة بعثوا خُمْسها إلى المدينة، فلما رآها عمر بن الخطاب ﵁ قال: إن قوماً أدوا هذا لأمناء. فقال علي ﵁: إنك قد عَفَفْتَ فعفَّتْ رعيتُك، ولو رتَعْتَ لرتَعتْ.[1]

وكان هذا النصر وهذه الغنائم مصداق ما أخبر به ﷺ عن سقوط كسرى ودولته وكنوزه بعد عناده ورفضه لرسالة الرسول وتمزيقها بقرابة تسع سنوات؛ ولا أشك في أن سلمان الفارسي﵁ قد علم بنفسه من رسول الله ﷺ ما وعد من فتح بلاد فارس عامة والمدائن خاصة وغنيمة المسلمين لكنوزها، كما لا شك في لقائه بالفارسيين اللذين قدما من اليمن مبعوثين من باذان بأمر كسرى أبرويزو، وأنه تحدث إليهما، حيث يتوقع بقاءهما أياماً عدة كان سلمان أثناءها في المدينة، وكان لذلك تأثير عليهما، ولذلك أسرع ملوك اليمن من الأبناء من الفرس في الاستجابة لدعوة رسول الله ﷺ إلى الإسلام، كما أن سلمان الفارسي ﵁ كان أول أمراء المسلمين على المدائن بعد فتحها

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ١٣٠ ـ ١٣١؛ وانظر: عبد العزيز العمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ١٢٤ ـ ١٣٣.

زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكان يمثل الإسلام أمام الفرس بتواضعه وزهده وحسن تعامله مع الناس، فكان له ولغيره من الصحابة أثر كبير في انتشار الإسلام بين الفرس.

كتاب الرسول ﷺ إلى المقوقس (عظيم القبط في مصر)

مصر بلد مشهور بالحضارة منذ القدم، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم أكثر من مرة، من ذلك في قصة يوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف]. وقوله تعالى ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يوسف]. كما جاء الحديث عنها مطولاً في حياة موسى عليه السلام وقصته مع فرعون وذكر بلفظه في القرآن الكريم على لسان فرعون: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف]، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس]، كما ورد الحديث عنه في آيات متعددة من دون تسميته.(١)

---

(١) انظر: السيوطي، حسن؛ المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ص ٧ ـ ١٠.

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ أخبر في أكثر من مرة بأن مصر ستفتح للمسلمين، ومن ذلك قوله ﷺ (ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً).[1]

وكان يتزعم مصر المقوقس سايروس *CYRUS* عند الروم، وهو رجل دين على مذهب القسطنطينية، يوناني الأصل كان أميراً على مصر من قبل هرقل وأسقفاً على الإسكندرية في الوقت نفسه.[2]

كان سكان مصر عند بعثة النبي ﷺ من الأقباط، وهم أهل البلاد الأصليين، يخالطهم مجموعة كبيرة من الروم، وخصوصاً في الإسكندرية في الشمال وفي المناطق العسكرية والإدارية، وكان الروم يمثلون سلطة القسطنطينية وإمبراطور بيزنطة، وهم في الغالب من الجنود والموظفين فضلاً عن بعض رجال الدين المسيحيين،[3] ومنهم المقوقس وهم على مذهب الطبيعة الواحدة في المسيح، وكان مذهب القبط هو المذهب النصراني ويختلف عن المذهب السائد *MONOTHELEMA*

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر، حديث رقم: ٢٥٤٣؛ وانظر: السيوطي، حسن، الحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ص١١.

(٢) ابن الكندي، تاريخ ولادة مصر، ص ١٥.

(٣) المقريزي، القول الإبريز، ص ٤٣.

فـي الـقـسـطـنـطـيـنـيـة بـيـن الـروم وهـو الـمـذهـب *MONOPHUSITAI*.[1]

وهناك شيء من التنافر بين المذهبين، مما يعني تنافراً بين سلطة الروم السياسية المسيطرة على مصر وغيرها، وبين شعب القبط سكان مصر الأصليين وكنيستهم القبطية، ما دفع الروم إلى مضايقة عدد من رجال الدين الأقباط وإبعادهم،[2] كما دخلت مصر في الصراع الرومي الفارسي، فوقعت في يد الفرس سنة ٦١٦ م،[3] وتم جلاء الفرس عنها سنة ٦٢٣م بعد انتصار الروم ومعاهدتهم للفرس. وكان ﷺ يتابع أخبار البلدان والصراع بين الفرس والروم، وتأتيه الأخبار من السماء، وجزء من هذا الصراع هو الوارد في سورة الروم ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ [الروم]، وحينما عاد الرسول ﷺ من صلح الحديبية كتب كتاباً إلى المقوقس عظيم القبط، وهو حاكم مصر وأسقفها من قبل الروم، وجاء في الكتاب ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني ادعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فان توليت فعليك إثم القبط ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ

---

(١) هـ. ايدرس بل، مصر من الإسكندر حتى الفتح العربي. ص ١٩٢.

(٢) المقريزي، القول الإبريز، ص ٤٣.

(٣) هـ. ايدرس بل، مصر من الإسكندر حتى الفتح العربي، ص ١٩٢.

شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ [آل عمران].[1] وقد اختار رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة لحمل الرسالة،[2] وقد تمكن من الوصول إلى المقوقس فسلمه كتاب رسول الله ﷺ فأكرمه، وكان أسقفاً فجمع البطارقة وحاول مناقشة ومحاجة حاطب بن أبي بلتعة، فكان من ذلك قوله: إذا كان نبياً فما باله لم يدع على قومه حين أخرجوه من بلده إلى غيرها، فرد عليه حاطب فقال له: فما بال عيسى حين أخذه قومه وأرادوا أن يصلبوه لم يدعُ عليهم بأن يهلكهم الله قبل أن يرفعه إلى السماء الدنيا، فقال له: أنت حكيم، قد جاء من عند حكيم، ثم رد على رسول الله ﷺ بكتاب لم يذكر فيه إسلامه، مع أنه فهم ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وجاء في كتابه: (لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه. وقد علمت أن نبياً قد بقي، وكنت أظنه بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط وبثياب وأهديت لك بغلة تركبها والسلام).[3]

---

(١) انظر: تخريجه عند: محمد عبدالله غبان، مرويات الوثائق المكتوبة من النبي ﷺ وإليه، ص٦٧٣ ـ ٦٧٥.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٧٠٦؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١٠/٢٦؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١/ ٣٠٠.

(٣) انظر: ابن سعد، الطبقات، ج١/ ٢٦٠؛ محمد أبو شهبة، السيرة النبوية ج٢/ ٣٦٢.

ومن الواضح محاورة المقوقس لحاطب أكثر من مرة وقناعته بنبوة الرسول ﷺ وأن أصحابه سينزلون مصر ويظهرون عليها.[1]

ومما بعث مع حاطب بن أبي بلتعة من هدايا إلى رسول الله ﷺ ماريه القبطية التي أصبحت أم إبراهيم ابن النبي ﷺ مع جارية أخرى.[2] وكذلك غلام أسود وخُفين ونعل.

ومن الواضح من كتاب المقوقس احترامه لرسول الله ﷺ ومعرفته لآخر الأنبياء وخاتمهم، ولم يَبدو فيه ما يظهر إسلامه مع معرفته بالحق، ولعله آثر الدنيا والمناصب والملك على الدين والآخرة، وسار على طريق هرقل في معرفة الحق والإعراض عنه، وكان على يقين بأخذ المسلمين لمصر وفتحها، كما كان المسلمون على يقين بذلك، وهو ما حدث في حياة المقوقس نفسه.

ففي سنة ٢٠ هـ أنطلق عمرو بن العاص من الشام إلى مصر فاتحاً بأمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عازمين على أخذها من الروم، كما أخذوا فلسطين وبلاد الشام. وقد دخل المسلمون

---

(١) ابن حجر، الإصابة، ج٣/ ٥٣١؛ ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص٤٥ ـ ٤٧؛ وانظر: فاروق حمادة، العلاقات الإسلامية النصرانية، ص٥٤.

(٢) هي سيرين أم عبد الرحمن بن حسان بن ثابت. ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ٥١٥.

مصر عن طريق العريش، وقاتلوا الروم في (الفرما) ثم في (بلبيس) إلى أن وصلوا إلى حصن بابليون الذي استعصى فترة من الزمن، حتى وصل مدد للمسلمين يقوده الزبير بن العوام ففتح.[1]

كان المقوقس يتابع أخبار المسلمين وفتوحهم مع إدارته للبلاد ومتابعته للقواد العسكريين، وكان يسأل جواسيسه ورسله الذين يتسللون بين المسلمين، حيث سألهم كيف رأيتم المسلمين؟! فأجابوا: رأينا قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة والتواضع أحب إليه من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يفرق رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد منهم من العبد، فإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم، فقال المقوقس: لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها.[2]

وقد طلب المقوقس من المسلمين أن يبعثوا إليه وفدًا ليفاوضهم، فبعث المسلمون وفدًا على رأسه (عبادة بن الصامت)، فقابل المقوقس، ودار بينهما حديث هدد فيه

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢١٤؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١/ ٢٨٨؛ انظر: عبدالعزيز العمري، الفتوح الإسلامية، ص١٠٣.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١/ ٢٤؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج١/ ٢٩٩.

المقوقس بقوات الروم وشدتها، وضعف المسلمين وقلة عددهم وسلاحهم، فقال له عبادة بن الصامت: (يا هذا لا تغرنّ نفسك ولا أصحابك، وأما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم، وأنّا لا نقوى عليهم فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به، ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه، إن كان ما قلتم حقًا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالكم، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه، وإن قُتلنا كلنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته، وما من شيء أقرّ لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك، إما أن تَعْظُمَ لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب الخصلتين بعد الاجتهاد منا، وقد قال الله في كتابه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة]. وما منا إلا ويدعو ربه صباح مساء أن يرزقه الشهادة، وأن لا يرده إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا فيما خلفه، وقد استودع كل منا ربه أهله وولده، وإنما همّنا ما أمامنا).

وقد أُعجب المقوقس بكلام عبادة بن الصامت، وأحس بقوة المسلمين ونصر الله لهم، فعزم على مصالحتهم ودفع الجزية لهم، إلا أن الروم رفضوا ذلك.[1] فاستمر حصار

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١/ ١٢٩؛ العُمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص١٤٣، ١٤٤.

الحصن، ثم تمكنوا من الاستيلاء عليه، ومنه استولوا على معظم أنحاء مصر، ثم تمكن المسلمون من فتح الإسكندرية سنة ٢١هـ وأصبحت لهم السيطرة على مصر.[١]

كتب رسول الله ﷺ إلى ملوك الحبشة

الحبشة منطقة تقع شرق أفريقيا مقابل السواحل اليمنية، وقد اختلفت حدوها من عصر لآخر، والأرجح أنها كانت في العصر النبوي تشتمل أجزاء من الصومال والسودان وغيرها وتسمى قديماً *(apyssinia)* وحالياً إثيوبيا *(Ethiopia)*، ودولتها قديمة عرفت منذ زمن سليمان عليه السلام وفد انتشرت فيها المسيحية في القرن الرابع الميلادي، وتمكنت من السيطرة على اليمن سنة ٥٢٥م. لما يقارب الخمسين سنة، وكانت عاصمتها أكسوم *axum*.[٢]

وصلة أهل مكة بها قبل مبعث النبي ﷺ قديمة، حيث كانت موضعاً لتجارة قريش يجلبون منها ولها السلع، وقد احتل الأحباش اليمن وسيطروا عليها وحكموها قبيل مولد النبي ﷺ وكانوا يتنازعون حكمها مع الفرس، وكان أبرهة الحبشي أشهر الحكام الأحباش لليمـن، وهو صاحب حملة الفيل على الكعبة، التي نـزل فيهـا قولـه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا

(١) خليفة بن خياط، تاريخه، ص١٥٠؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٢٢.
(٢) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية ص ٣٠٠؛ انظر: ابن كثير، ج٢/ ٢٠٣١.

أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل]. (١)

وحينما أوذي النبي وأصحابه في مكة، وجههم ﷺ للهجرة إلى الحبشة،(٢) وأخبرهم بعدل ملكها، الذي كان يسمى عند العرب بالنجاشي، وهو إسم لكل من ملك الحبشة،وكان في تلك الفترة أصحمة، وكان مع المهاجرين الأولين للحبشة جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه، وقد بعث ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة برسالة جاء فيها: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة سلام عليك، فإني أحمد إليك الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخته، كما خلق آدم بيده ونفخته، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاؤوك فأَقْرِهِمْ ودع التجبر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلّغت ونصحت فأقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى)). (٣)

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ج٢/ ٢٠٣١.

(٢) انظر: الهجرة إلى الحبشة، من هذا الكتاب.

(٣) ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ١٥؛ ابن القيم، زاد المعاد، ج٣/ ٦٨٩.

ومن الواضح من الرسالة اختلاف أسلوبها عن رسائل الرسول ﷺ لبقية الزعماء حيث يبدو منها خطاب خاص لرجل لديه شيء من الإيمان بما جاء فيها عن الرسول ﷺ، ومن المؤكد أن النجاشي أصحمة ناقش جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه مرات عدة، منها حينما حضر وفد من قريش مطالباً بإعادة جعفر ابن أبي طالب ومن معه من المهاجرين، فعقد لهم أصحمة مجلساً للمناقشة وسمع منهم ومن وفد قريش وأظهرت نتيجة المناقشة، ميل النجاشي إلى الحق والإسلام،[١] واستعداده للدفاع عن المهاجرين من الصحابة، وقد رد أبرهة على رسالة النبي ﷺ وأعلن إسلامه على يدي جعفر بن أبي طالب ومما جاء في رسالة النجاشي:

(بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله، من النجاشي أصحمة سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته الله الذي لا الله إلا هو، أما بعد فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فوربّ السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت ثفروقاً[٢] إنه كما ذكرت. وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك

(١) انظر الهجرة إلى الحبشة، من هذا الكتاب.

(٢) الثفروق: هو قمع التمرة وقيل ما يلتصق بالقمع من التمر، الجوهري: الصحاح ج٤/ ١٤٥٤.

رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين).[1]

وكان الصحابة عند ملك الحبشة مكرمين معززين، ودلت روايات مختلفة على أنه دخل في الإسلام، وكان بينه وبين الصحابة لقاءات عديدة، ورأوا منه كل خير.

وقد ثبت أن الرسول ﷺ قد بعث برسالة إلى ملك الحبشة أصحمة، ولعله الثاني ويختلف عن الأول، وحمل الرسالة عمرو بن أمية الضمري في السنة السادسة من الهجرة وجاء فيها: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا الله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فأقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى)).[2]

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ج٤/ ٦٩٠؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٣/ ٨٤؛ ابن الجوزي، وفاء الوفا في أحوال المصطفى، ج٢/ ٧٥.
(٢) ابن القيم، زاد المعاد ج٤/ ٦٨٩.

وبعد قراءة النجاشي الرسالة جرت بينه وبين عمرو بن أمية الضمري مناقشات حول المسيح عليه السلام ودعوة النبي صلى الله عليه وسلم وكان من هذا الحوار (إن عَمْراً قال له: يا أصحمة إن علي القول وعليك الاستماع إنك كأنك في الرِّقة علينا وكأنا في الثقة بك منك، لأنا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه، ولم نخفك على شيء قط إلا أمناه، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يُرد، وقاضٍ لا يجور، وفي ذلك موقع الحَزِّ وإصابة المفصل، وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم وقد فرق النبي صلى الله عليه وسلم رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له وأمَّنك على ما خافهم عليه بخير سالف وأجر ينتظر. فقال النجاشي: أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل[١] وأن العيان ليس بأشفى من الخبر ثم كتب النجاشي جواباً على كتاب النبي صلى الله عليه وسلم.[٢]

ونص الرسالة وبقية الروايات تؤكد إسلام هذا النجاشي على يد عمرو بن أمية الضمري، والمرجح عندي وعند الكثيرين أنه غير النجاشي الأول الذي هاجر إليه جعفر بن أبي طالب ومن معه، وتدل الروايات على أن النجاشي هذا وإسمه أصحمة بن

---

(١) فيه إشارة إلى أن عيسى بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم كما بشر موسى بعيسى عليه السلام.

(٢) ابن القيم، زاد المعاد، ج٤/ ٦٨٩، ٦٩٠.

أبحة، وقد كتب له الرسول ﷺ يأمره أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، حيث خطبها النبي ﷺ وهي في الحبشة بعد ردة زوجها ووفاته فناب أصحمة عن النبي ﷺ في العقد وأصدقها نيابة عنه.[١] ودلت روايات مختلفة أن ملك الحبشة بعث إلى الرسول ﷺ في سنة (٨هـ) أناساً من الحبشة، وأنهم غرقوا في البحر قبل وصولهم المدينة.[٢]

وقد حمل عمرو بن أمية الضمري أصحاب رسول الله ﷺ المهاجرين إلى الحبشة على سفينتين وعاد بهم إلى المدينة أثناء غزوة خيبر في السنة السادسة للهجرة ومعهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فكان النبي ﷺ، يقول: (ما أدري بأيهم أُسَرُّ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟) ولا شك أن الترتيب لسفرهم وعودتهم للنبي ﷺ وتأمين السفر كان بمبادرةٍ من النجاشي، وقد عَدَّ ابن هشام هؤلاء المهاجرين وأسماءهم وعقد لذلك موضوعاً خاصاً سماه (ذكر قدوم جعفر بن أبي طالب من الحبشة وحديث المهاجرين إلى الحبشة).[٣]

ودلت روايات صحيحة ومتعددة عند البخاري ومسلم

---

(١) ابن سعد، سنن النبي ﷺ وأيامه ج١/ ٦٠٨؛ وانظر: ابن كثير، السيرة النبوية ج٣/ ٢٧٣.

(٢) ابن إسحاق، السيرة، المغازي، ص٢١٩؛ ابن حجر، الإصابة، ج١/ ١٠٢.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٥٩.

وغيرهما أن رسول الله ﷺ قد صلى صلاة الغائب على النجاشي عند وفاته،[١] مع اختلاف في وقتها، و هذا يدل على إسلامه، ومن المرجح عند كثير من العلماء أنه كان يكتم إسلامه، ولعل هذا هو النجاشي الأول الذي استقبل جعفر بن أبي طالب ومن معه من المهاجرين.

ويذكر بعض المؤرخين أن هرقل علم بإسلام النجاشي، وكان يدفع له مساعدة مالية سنوية، نظراً لارتباطه الديني والإداري بالروم، فقطع هرقل تلك المساعدة.[٢]

رسالته ﷺ إلى هوذة بن علي الحنفي (في اليمامة)

اليمامة إقليم معروف في نجد، وتسمى العروض أو العارض وقاعدتها حَجَر إلى الغرب من البحرين. وتشتهر بالعديد من القرى في وادي حنيفة وما حولها، ـ وهي الرياض وما يحيط بها حالياً ـ وهي ذات إنتاج زراعي، وفي العهد النبوي كانت تُصدر القمح إلى مكة وغيرها.[٣]

كان في اليمامة حواضر مختلفة وزعامات متفرقة، وقبائل ذات شأن واشتهرت بعيونها ونخيلها.[٤]

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب موت النجاشي، ج٤/ ٢٤٦.
(٢) ابن القيم، زاد المعاد ج ٣/ ٦٩٤.
(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥/ ٤٤٢؛ وانظر: عبد الله بن خميس، معجم اليمامة، ج١/ ١٥.
(٤) المرجع السابق، ج١/ ٣٥.

وكانت أشهر قبائلها بنو حنيفة في قاعدتها حجر، وفي عقرباء (بالقرب من العيينة)،[1] ومن أشهر من أسلم من زعمائها (ثمامة بن أثال) في قصة معروفة،[2] حيث منع تصدير القمح إلى قريش بعد إسلامه، فطلب أهل مكة شفاعة النبي ﷺ لكي يعيد إليهم تجارة القمح، وكان من أشهر زعمائها هوذة بن علي الحنفي الذي كتب له الرسول ﷺ كتاباً، وكان في نواحي جو الخضارم (الخَرْج)، وكان حاكماً في بني حنيفة، فكتب له ﷺ في السنة السادسة للهجرة ضمن من كتب إليهم من الملوك والأمراء. وجاء في الكتاب: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي، سلام على من اتبع الهدى، وأعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخُفّ والحافر، فأسلم تسلم وأَجعلُ لك ما تحت يديك، فلما قدم عليه سليط بن عمرو العامري بكتاب النبي ﷺ مختوماً أنزله وحيّاه وقرأ عليه الكتاب، فرد رداً دون رد، وكتب إلى النبي ﷺ ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني فاجعل إليّ بعض الأمر أتبعك، وأجاز سليطاً بجائزة وكساه أثواباً من نسج هَجَر، فقدم بذلك على النبي ﷺ فأخبره، وقرأ النبي ﷺ كتابه وقال لو سألني سيابةً من الأرض ما فعلتُ بادَ وبادَ

---

(١) انظر: عبدالله بن خميس، معجم اليمامة، ج٥/ ٤٤٢.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة ابن أثال، حديث رقم ٤٣٧٢.

ما في يديه)).[1] وقد حمل الرسالة (سُليط بن عمرو العامري)، وهو صحابي جليل من مهاجري الحبشة من المسلمين الأوائل، حمل أهله في هجرة الحبشة وولد له هناك.[2]

ولما وصلت الرسالة إلى هوذة بن علي كان عنده رجل من عظماء نصارى دمشق الشام، فسأله عن النبي ﷺ وحدثه بكتابه الذي جاءه من النبي ﷺ، ورد هوذة عليه، وأنه خاف على ملكه فقال له: (لئن اتبعته ليملكنّك، فإن الخيرة لك في اتباعه، وإنه للنبي العربي الذي يبشر به عيسى، وإنه لمكتوب عندنا في الإنجيل محمد رسول الله).[3]

ومن الواضح إصرار هوذة على عدم الإسلام رغم كتابة الرسول ﷺ له، حيث إن اشتراطه وعدم إسلامه دعا النبي ﷺ إلى الدعاء عليه: ((بادَ وبادَ مُلْكه))، وهذا ما حصل، فبعد انصراف الرسول ﷺ من غزوة فتح مكة ((جاءه جبريل عليه السلام بأن هوذة قد مات، فقال النبي ﷺ أما إنّ اليمامة سيخرج فيها كذاب يُقتل بعدي))، فقال قائل: يا رسول الله من يقتله؟ فقال له رسول الله ﷺ ((أنت وأصحابك)).[4]

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣/ ٦٩٦.
(٢) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج٢/ ٧١.
(٣) ابن القيم، زاد المعاد ج٣/ ٦٩٧.
(٤) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣/ ٦٩٦.

وحينما قدم وفد بني حنيفة في السنة التاسعة للهجرة[1] كان معهم مسيلمة الكذاب، الذي قال: (إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته، وقدمها في بشر كثير من قومه، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وفي يد رسول الله ﷺ جريد، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه. فقال: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك ولئن أدبرت ليعقرنّك الله، وإني لأراك الذي أُريت فيه ما رأيت. وهذا ثابت ابن قيس يجيبك عني وانصرف)).[2]

وقد ارتد مسيلمة ومن معه من بني حنيفة أواخر عهد النبيﷺ وادعى النبوة، وأصبح يسجع للناس كلاماً هراءً لا فائدة فيه، يزعم أنه قرآن وفتن الناس به، واتبعوه عصبية له، حتى كان بعضهم يقول: (كذاب ربيعة خير من صادق مضر)،[3] حيث زعم أنه أُشرك في الأمر معه، وكتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً جاء فيه: (من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله: سلام عليك، أما بعد فإني قد أُشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشا قوم

(١) وضع البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة، وحديث ثمامة بن آثال، ج٥/ ١١٧.
(٢) من حديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال، ج٥/ ١١٨.
(٣) انظر: الطبري، تاريخه، ج٣/ ٢٤٦.

يعتـدون).[1] فرد عليه الرسول ﷺ ومما جاء فيه: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب: السلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)).[2]

اشتدت الردة، وأعدّ مسيلمة جيوشاً لقتال المسلمين والهجوم على المدينة، وكان بنو حنيفة في اليمامة أتباع مسيلمة الكذاب أخطر المرتدين على المسلمين في المدينة، حيث كان لديهم جيش يزيد على أربعين ألف مقاتل، كما كان فيهم عصبية قوية دفعتهم للتجمع حول مسيلمة وإظهار الاستعداد لقتال المسلمين، بل وحتى مهاجمة المدينة نفسها لسهولة الوصول إليها، ولذلك كان من أوائل الجيوش المرسلة إليهم جيش يقوده [عكرمة بن أبي جهل] رضي الله عنه، فلم يلق نجاحًا في مواجهته الأولى مع [مسيلمة]، ولذلك صرفه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى منطقة أخرى، وكان قد وجه [شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه] مددًا لعكرمة فأمره بالتريث في طريقه إلى اليمامة ووجه [أبو بكر] رضي الله عنه [خالد بن الوليد] رضي الله عنه، وأمر [شرحبيل] بالانضمام إلى [خالد بن الوليد]،[3] واقترب الجيش من اليمامة، وعماده المهاجرون

(١) انظر تخريجه عند: محمد حميد الله، الوثائق السياسية؛ وانظر: ابن سعد، الطبقات، ج١/ ٢٧٣.
(٢) انظر تخريجه تحت رقم ٢٠٦ عند: محمد حميد الله، الوثائق السياسية.
(٣) الطبري، تاريخه، ج٣/ ٢٤٣.

وعليهم [أبو حذيفة] و[زيد بن الخطاب] (رضي الله عنهما) ويحمل رايتهم [سالم] مولى أبي حذيفة (رضي الله عنهما)، والأنصار وعليهم [ثابت بن قيس بن الشماس]، ﵁ ولما قرب جند المسلمين علم بهم [مسيلمة] فخرج بجنده إلى (عقرباء) وعسكر بهم، وتمكن المسلمون من الوقيعة بإحدى سرايا [مسيلمة] وتقدر ما بين الأربعين إلى الستين رجلاً، ثم وقع اللقاء مع مسيلمة وقواته، وكان من أوائل القتلى رجل يسمى (الرجال بن عنفوة)، كان قد أظهر الإسلام والتقى بالنبي ﷺ ثم ارتد وتبع مسيلمة، وزعم الرجال أن مسيلمة قد أُشرك مع النبي ﷺ في الرسالة، فكان أشد فتنة لبني حنيفة من مسيلمة نفسه.[1]

واشتد القتال واجتهد فيه بنو حنيفه، وتمكنوا من فك بعض أسراهم في السرية الأولى، واهتزت صفوف المسلمين، وكادت أن تقع بهم الهزيمة، ثم تداعى المسلمون للثبات، وقاتلوا ببسالة. وكان من هؤلاء ثابت بن قيس بن الشماس ﵁ حامل لواء الأنصار الذي قال: بئس ما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين، اللهم إني أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء يعني أهل اليمامة، واعتذر إليك مما يصنع هؤلاء يعني المسلمين، ثم قاتل حتى قتل، وقال أبو حذيفة ﵁: يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال.[2] واشتد القتال

---

(١) انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٠٦؛ تاريخ الإسلام وعصر الراشدين، ص ٤٠.

(٢) الطبري، تاريخه، ج٣/ ٢٤٨.

وكان في أوله في صالح بني حنيفة، ثم أصبح سجالاً، ثم أمر خالد بن الوليد الناس بأن يمتازوا وتكون كل فئة وقوم لوحدهم حتى يُرى من أين يؤتى الناس، وكان القتال شديدًا، وكان أكثر الناس تحملاً من المسلمين أهل القرآن من المهاجرين والأنصار، أكثر قتلى المسلمين منهم، وشعار المسلمين يوم ذاك: يا محمداه، حيث إنهم حديثو عهد بوفاته ﷺ. وثبت مسيلمة في أول الأمر ثم انهزم عنه قومه، وقد دعا [خالد] رضي الله عنه [مسيلمة الكذاب]، فعرض عليه أشياء رفضها مسيلمة، وأصر على مواصلة القتال، فقاتله خالد بنفسه حتى أزاله فهرب وهرب معه أصحابه، فركبهم المسلمون وأخذوا يقتلون فيهم، ولاحت بشائر النصر للمسلمين، فقال أصحاب مسيلمة له أين ما كنت تعدنا؟ فقال: قاتلوا عن أحسابكم، وتنادوا الحديقة! الحديقة!، ليلجأوا إلى حديقة لمسيلمة مسورة ومحصنة، والتجأ مسيلمة ومعه سبعة آلاف من قوات بني حنيفة إلى تلك الحديقة، وأغلقوا على أنفسهم وتحصنوا، فلحق بهم شجعان المسلمين ومعهم [البراء بن مالك] أخو خادم رسول الله ﷺ أنس بن مالك (رضي الله عنهما)، وكان كالأسد في شجاعته، فلما رأى المسلمين حائرين في الأسوار، أقسم عليهم البراء أن يحملوه ويلقوه على السور ليحاول فتح الأبواب للمسلمين، وامتنع المجاهدون عن ذلك خوفًا عليه من أن يقتحم عليهم وحيدًا، فلما رأوا إصراره ألقوه على السور، فقاتل حتى تمكن من فتح الأبواب للمسلمين.

ودخل عليهم المسلمون الحديقة واشتد القتل في الفريقين، وتمكن المسلمون من قتل مسيلمة الكذاب، وقد اشترك في قتله أحد الأنصار مع وحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب ﷺ.

ولما علم بنو حنيفة بمقتله انهزموا وأخذتهم سيوف المسلمين. ثم إن أحد أسرى [خالد] ﷺ من زعماء بني حنيفة طلب أن يصالح خالدًا عن بني حنيفة، وخدعه بأن بقية الحصون ملأى بالرجال، وأن لهم كَرَّة على المسلمين، وكانت نساء بني حنيفة قد لبسن السلاح، وأخذن يظهرن أنفسهن من على الحصون، فظن المسلمون أن لجيوش بني حنيفة بقية، فصالح ذلك الزعيم خالداً عن قومه بوقف الحرب بشروط، ثم اكتشف المسلمون أنه ليس في الحصون إلا النساء والضعفاء، فوفوا لهم. وجاء أمر من أبي بكر الصديق ﷺ بقتل كل محتلم من القوم، ولكنه بعد أن علم بهذا الصلح أمضاه.

وقد انتهت بذلك ردة بني حنيفة وقُتل كذابهم، ثم عادوا بعد ذلك إلى الإسلام.(١) وأبلى بعض منهم بلاءً حسنًا أيام الفتوح.

وقد استشهد جمع كبير من أصحاب النبي ﷺ في هذه المعركة، كان فيهم جماعة ممن شهدوا بدرًا وأحدًا والمشاهد مع النبي ﷺ. وقد بلغ عدة الشهداء ثلاثمائة وستين من الأنصار

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١١٠؛ الطبري، تاريخه، ج٣/ ٢٥٣.

وثلاثمائة من المهاجرين، إضافة إلى بعض الأعراب، كما بلغ عدة من قتل من بني حنيفة عشرين ألفًا،[1] وكان معظم قتلى المسلمين في اليمامة من حملة القرآن فعمل المسلمون على جمعه بعد ذلك.[2]

وقد ذكر أن لبني حنيفة بعد ذلك دور في التأليب على عثمان بن عفان ﵁ وقتله وإحداث الفتنة بين المسلمين.

كتابه ﷺ إلى المنذر بن ساوي العبدي في البحرين

البحرين اسم جامع لمناطق بين عمان والبصرة على ساحل البحر، ومن مدنها الرئيسة هَجَر وجواثا والقطيف وإقليم الإحساء كاملاً، ومن عمالها الفرس سيبخت ومن العرب المنذر ابن ساوي العبدي،[3] الذي كان تحت سلطة الفرس، والبحرين مناطق حضرية فيها هجر المدينة المشهورة وفيها قبائل في بواديها، إضافة إلى سكان المدن من الحضر من مزارعين وغيرهم، وكان فيهم خليط من المجوس واليهود والعرب ومنهم نصارى.

---

(١) الطبري، تاريخه، ج٣ /٢٥٢؛ العُمري، الفتوح عبر العصور، ص١٠ ـ ١٠٦.

(٢) صحيح البخاري، باب جمع القرآن، ج٩/٨.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١/٣٤٦؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص٩٠؛ ابن سعد، الطبقات، ج١/٢٦٣.

وقد ورد أن الرسول ﷺ كتب إلى المنذر بن ساوي كتاباً قرأه على أهل البحرين فأسلم بعضهم وكره بعضهم الإسلام، فكتب إلى الرسول ﷺ في ذلك فرد عليه ﷺ بكتاب جاء فيه: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. أما بعد فإني أذكرك الله عز وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفعتك في قومك فأترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية)). (١)

وكان حامل الرسالة هو العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه، وذلك في السنة الثامنة للهجرة، وقد انتشر الإسلام في البحرين، فكان بعض أهلها يدفعون الزكاة والبعض الآخر من النصارى والمجوس يدفعون الجزية. (٢)

وقد أصبحت البحرين جزءاً من الدولة الإسلامية في أوآخر العصر النبوي، وقد بعث الرسول ﷺ إليها مجموعة من الولاة،

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣/ ٦٩٢.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١/ ٣٤٨.

نظراً لوجود العديد من القرى فيها، وكان من أشهر ولاة البحرين خلال العصر النبوي الصحابي الجليل (العلاء ابن الحضرمي)ﷺ،[1] وقد بعث معه الرسول ﷺ بعض الصحابة منهم أبو هريرة ﷺ. وقد دارت بينه وبين الرسول ﷺ العديد من المراسلات التي تتعلق بشؤون الولاية. وكان الرسول ﷺ يبعث بعض أصحابه إلى العلاء ليحضر الجزية المفروضة على المجوس في البحرين إلى المدينة المنورة،[2] وكان من هؤلاء المبعوثين (أبو عبيدة بن الجراح) ﷺ واستمر العلاء والياً للبحرين أيام الرسولﷺ. والراجح أن الرسول توفي والعلاء على البحرين، وقد أقره أبو بكر على ولايته بعد وفاة الرسول ﷺ، كما أقره عمر بعد وفاة أبي بكر (رضي الله عنهما).[3]

وكان للعلاء بن الحضرمي دور كبير في جهاد المرتدين في البحرين حيث ارتدت معظم قبائل البحرين بعد وفاة الرسول ﷺ وقد استطاع العلاء بتوجيه من أبي بكر الصديق ﷺ أن يقضي على الردة، ويعيد البحرين إلى صف الإسلام مرة أخرى، وبعد هذا الفتح وجه العلاء بخمس الغنائم إلى أبي بكر الصديق، وقد أقره الصديق على البحرين طيلة خلافته، حيث كانت البحرين تنعم بالاستقرار بقية أيام أبي بكر تحت ولاية العلاء بن

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١/ ٢٦٢.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، قصة عُمان والبحرين، ج٥/ ١٢١.

(٣) خليفة بن خياط، تاريخه، ص١٢٣.

الحضرمي، الذي جرت بينه وبين أبي بكر العديد من المراسلات التي تتعلق بشؤون ولاية البحرين.[١]

فروة بن عمرو الجذامي

كان أميراً على أطراف الشام مما يلي بلاد العرب، وكان مرتبطاً بالروم ومقره معان من نواحي الأردن.[٢]

أسلم وكتب إلى رسول الله ﷺ بإسلامه، وبعث بهدايا لرسول الله ﷺ، فكتب إليه رسول الله ﷺ كتاباً جاء فيه: ((من محمد رسول الله إلى فروة بن عمرو، أما بعد فقد قدم علينا رسولك وبلّغ ما أرسلت به وخبّر عمّا قبلكم وأتانا بإسلامك، وإن الله هداك بهداه إن أصلحت وأطعت الله ورسوله وأقمت الصلاة وآتيت الزكاة. وأمر بلالاً فأعطى رسوله مسعود بن سعد اثنتي عشرة أوقية ونشّاً، قال: وبلغ ملك الروم إسلام فروة فدعاه فقال له: ارجع نملّكك، قال: لا أفارق دين محمد وإنك تعلم أن عيسى قد بشرّ به ولكنك تضن بملكك، فحبسه ثم أخرجه فقتله وصلبه)).[٣] ومع محاولة رده عن إسلامه فإنه ثبت

---

(١) العُمري، الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين، ص ٥٣ ـ ٥٥؛ وانظر: بعض تلك المراسلات عند محمد حميد الله، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص ٣٤٦.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٥٩١.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج١/ ٢٨١؛ ابن الجوزي، وفاء الوفاء، ج٢/ ٧٤٠.

عليه وقتل شهيداً، وقد قال أبياتاً تدل على ثباته على الإسلام قبل قتله ومنها قوله:

بـلـغ سـراة الـمـسـلـمـيـن بـأنـنـي
سـلـم لـربـي أعـظـمـي وبـنـانـي[1]

ولعل لمقتله دوراً في تحريك غزوة مؤتة مع أسباب أخرى،[2] وقد عرف بعد ذلك وجود عدد من جذام ثابتين على الإسلام دافعوا عن دحية بن خليفة الكلبي حين تعرضت قافلته للإغارة من بعض القبائل،[3] وجاء أنه أهدى لرسول الله ﷺ فرساً قبل قتله من قبل الروم.[4]

رسائل الرسول ﷺ إلى ملكي عُمان

تقع عُمان في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية، على ساحل الخليج العربي وبحر العرب (خليج عُمان)، وحدودها في العصر النبوي قريبة من الحدود الحالية المعروفة لعمان المعاصرة،[5] وتتصل بحضرموت من الغرب، وبمنطقة البحرين

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٥٩٢.

(٢) انظر علي العتوم، غزوة مؤتة، ص ١٠٤.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٦١٢؛ وانظر: د. علي العتوم، تجربة مؤتة، ص١٠.

(٤) ابن سعد، الطبقات، ج١/ ٤٩٠؛ وابن سيد الناس، عيون الأثر، ج٢/ ٤٢٢؛ وفاروق حمادة، العلاقات الإسلامية النصرانية، ص١٣١.

(٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤/ ١٥٠؛ وانظر: عبدالمنعم عبدالحميد سلطان، تاريخ عمان والخليج في صدر الإسلام، ص ١٣.

من الشمال، تشتهر بزراعة النخيل وإنتاجها الحيواني الوفير، وعلاقاتها التجارية البحرية مع الهند وغيرها. كانت فيها دولة توارثها آل الجلندي وعاصمتها صُحار، وأشهر قبائلها الأزد، ومنهم الملوك.

وكانت الوثنية تسود في عمان كغيرها من بلاد العرب، مع وجود أفراد من المجوس، وأفراد من النصارى لا تأثير يذكر لهم، وقد وصلت أخبار الإسلام مبكرة إلى عمان[١] بحكم احتكاكها بقبائل العرب، سواء في البحرين أم في اليمن وحضرموت، وبعد عودة الرسول ﷺ من عُمْرة القضاء في السنة السابعة للهجرة كتب كتاباً إلى جيفر وعبّاد ابني الجلندي يدعوهما فيه إلى الإسلام وبعثه مع عمرو بن العاص،[٢] وجاء في الكتاب: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي سلام على من اتبع الهدى أما بعد: فإني أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام

(١) عبد المنعم عبد الحميد سلطان، تاريخ عمان والخليج في صدر الإسلام، ص ٢٦.

(٢) هنالك آراء مختلفة حول بعث عمرو يرجح بعضها السنة الثامنة أو غيرها، انظر: عبد المنعم عبد الحميد سلطان، تاريخ عمان والخليج في صدر الإسلام، ص ٢٨.

فإن ملككما زائل عنكما وخيلي تحل بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما)). [1]

ويقص عمرو بن العاص ﷺ وصوله إلى عمان وكيفية مقابلته الملكين وما دار بينه وبينهما فيقول: (قال عمرو فلما قدمت عُمان عمدت إلى عباد وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خُلقاً فقلت: إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك فقال: أخي المقدم علي بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك، فمكثت أيامًا ببابه ثم إنه دعاني فدخلت عليه فدفعت إليه الكتاب مختومًا ففض خاتمه، وقرأه حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه فقرأه إلا أني رأيتَ أخاه أرق منه فقال: دعني يومي هذا وارجع إليّ غداً، فلما كان الغد رجعت إليه فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه فإذا أنا أضعف العرب إن مَلَّكتُ رجلاً ما في يدي قلت: فإني خارج غدًا، فلما أيقن بمخرجي أصبح فأرسل إليّ فدخلت عليه، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعًا، وصدقا بالنبي ﷺ وخليا بينِي وبين الصدقة، وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عونًا على من خالفني فأخذت الصدقة من أغنيائهم فرددتها في فقرائهم). [2]

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣/ ٦٩٣؛ وانظر: تخريجه عند: محمد حميد الله، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص ١٤٦.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ج١/ ٢٦٢، ٢٦٣.

ويظهر أن هناك حواراً طويلاً دار بين عمرو بن العاص رضي الله عنه وبين الملكين، تركز حول موقف الملوك الآخرين من رسائل الرسول ﷺ ومن دعوته، وعن قومه قريش وما حصل منهم، حيث أخبرهم عمرو بإسلام النجاشي وقبوله الدعوة، وعن موقف هرقل من إسلام النجاشي، كما دارت بينهم مناقشة حول الصدقة وفرائض الزكاة ومن يستحقها، وجوهر دعوة الرسول ﷺ.

وبالطبع اقتنع الملكان بالإسلام وتركا عمرو بن العاص يؤدي مهمته في الزكاة، بأخذها من الأغنياء وردها على الفقراء، بقية حياة الرسول ﷺ. ويظهر أنه كان يشاركه في المهمة أبو زيد الأنصاري[1] حيث ساهم في تعليم الناس القرآن وسنة رسول الله ﷺ، كما كان للعلاء بن الحضرمي أمير البحرين نوع من العلاقة ببعض الأعمال في عمان،[2] وقد استمر عباد وجيفر على مُلك عمان، بقية حياة الرسول ﷺ.

وحدثت ردة في عمان بعد وفاة الرسول ﷺ تمكن أبو بكر الصديق رضي الله عنه بمساعدة جيفر وعباد ملكي عمان من التصدي لها، بعد معارك متعددة قادها حذيفة بن محصن وعكرمة بن أبي جهل

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٩٣؛ وانظر: عبد المنعم عبد الحميد سلطان، تاريخ عمان والخليج في صدر الإسلام، ص ٣٠؛ وأبو زيد هو ثابت الأنصاري والد زيد بن ثابت الأنصاري، الذي جمع القرآن؛ ابن حجر، الإصابة، ج١/ ١٩٣.

(٢) العُمري، الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين، ص ٤٦.

في نواحي دُبا،[1] وقابل عدد من أهل عُمان أبا بكر الصديق رضي الله عنه في بداية خلافته مؤيدين ثابتين على الإسلام فأثني عليهم وعلى ثباتهم رغم اضطراب الأحوال بعد وفاة الرسول ﷺ.[2] وكان لقبائلها دور مهم في الفتوح الإسلامية في عصر الراشدين وخصوصاً في العراق وفارس.

كتابه ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني

كان الحارث أميراً على نواحي البلقاء من أرض الشام وبعض نواحي دمشق.[3] وكان تابعاً للروم متعصباً للنصرانية.

وقد كتب له رسول الله ﷺ رسالة جاء فيها: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك)).[4] وقد غضب الحارث، ورمى الرسالة. وكان حامل الرسالة شجاع بن وهب

(١) خليفة بن خياط، تاريخه، ص٩٧؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص٨٧، ودُبا: مدينة عمانية بها سوق من أسواق العرب المشهورة في العصر الجاهلي، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢/ ٤٣٤.

(٢) الطبري، تاريخه، ج٣/ ٢٦٢، ٢٦٣.

(٣) فاروق حمادة، العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، ص٨٣.

(٤) ابن سعد، الطبقات، ج١/ ٥٦١؛ ابن القيم، زاد المعاد، ج٤/ ٦٩٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤/ ٤٦٨.

الأسدي،[1] وهدد وتوعد وكتب إلى قيصر يستأذن في الهجوم على الرسول ﷺ في المدينة، فنهاه عن ذلك وقال لا تَسِرْ إليه والْهُ عنه.[2]

جَبَلة بن الأيهم الغساني

كان جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة المشهورين في الشام قبل الإسلام.[3] وكانوا مقصد العرب وشعرائهم في الجاهلية وتربطهم بالأوس والخزرج وشائج قُرْبى، يزورهم حسان بن ثابت وغيره من شعراء يثرب قبل الإسلام فيمدحونهم وينالون من عطاياهم.

وكانوا تبعاً للروم، إلا أنهم يملكون نصارى العرب في الشام، وقد كتب الرسول ﷺ كتباً إلى جبلة بن الأيهم ملك غسان يدعوه إلى الإسلام.[4]

وقد حمل الرسالة شجاع بن وهب الأسدي، وكان يعرف صلة النسب بين الأنصار والغساسنة، ودار حوار بين شجاع وجبلة جاء فيه: أن شجاعاً قال له: يا جبلة إن قومك نقلوا هذا

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٦٠٧؛ وابن حجر، الإصابة، ج٢/ ١٣٨.

(٢) الحلبي، السيرة الحلبية، ج٣/ ٣٠٦.

(٣) ابن حبيب، المحبر، ص٣٧٢.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٦٠٧؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٨/ ٢٦٥؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج١١/ ٣٥٩.

النبي من داره إلى دارهم ـ يعني الأنصار ـ فآووه ومنعوه ونصروه، وإن هذا الدين الذي أنت عليه ليس بدين آبائك ولكنك ملكت الشام وجاورت الروم، ولو جاورت كسرى دِنْتَ بدين الفرس، فإن أسلمت أطاعتك الشام وهابتك الروم وإن لم يفعلوا كانت لهم الدنيا وكانت لك الآخرة، وقد كنت استبدلت المساجد بالبِيَعْ، والأذان بالناقوس، والجُمَعَ بالشعانين،[1] وكان ما عند الله خير وأبقى. قال جبلة: إني والله لوددت أن الناس اجتمعوا على هذا النبي اجتماعهم على من خلق السموات والأرض، وقد سرّني اجتماع قومي له، وقد دعاني قيصر إلى قتال أصحابه يوم مؤتة فأبيت عليه، ولكني لست أرى حقاً ولا باطلاً وسأنظر).[2]

وليس واضحاً إسلامه زمن النبي ﷺ، ولكن من الواضح وجود فهم لديه بالإسلام ومحبة منه لما جاء به النبي ﷺ، وإن لم يعلن إسلامه، وقد شارك قومه في معركة اليرموك مع الروم وقيل أنه كان معهم[3] في القتال.

وقد أظهر الإسلامَ وقدم المدينة زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

(١) يقال للرجل أشعث الرأس: أي ثائر الرأس سيئ المنظر قليل النظافة والترتيب ولعله أراد النظافة والغسل ليوم الجمعة، وانظر: الزبيدي، تاج العروس، ج٩/ ٢٥٤؛ والجوهري، الصحاح، ج٥/ ٢١٤٥.
(٢) الحلبي، السيرة الحلبية، ج٣/ ٣٠٦.
(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٨٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨/ ٦٣.

ومعه عدد من فرسان قومه، ودخلوها في هيئة وزينة لافتة للنظر،[1] وقد سُرَّ عمر بقدوم جبلة ومن معه مسلمين، لكن حادثة وقعت أدت إلى ردته وفراره إلى الروم. ذلك أنه وطء رداء رجل من مزينة بدمشق، فلطمه ذلك المزني، فدفعه أصحاب جبلة إلى أبي عبيدة فقالوا: هذا لطم جبلة. قال أبو عبيدة: فليلطمه جبلة. فقالوا: أَوَما يُقتل؟. قال: لا!. قالوا: فما تقطع يده؟. قال: لا، إنما أمر الله بالقَوَد. فقال جبلة: أترون أني جاعل وجهي بدلاً لوجه مازني جاء من ناحية المدينة؟ بئس الدين هذا. ثم ارتد نصرانياً، وترحّل بأهله حتى دخل أرض الروم، فبلغ ذلك عمر فشق عليه وقال لحسان: إن صديقك جبلة ارتد عن الإسلام. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثم قال: ولِمَ؟ قال: لطمه رجل من مزينة. فقال: وحق له، فقام إليه عمر بالدرة فضربه.

وقيل إن عمر لما بلغه إسلام جبلة فرح بإسلامه، ثم بعث يستدعيه ليراه بالمدينة. وقيل: بل استأذنه جبلة في القدوم عليه فأذن له، فركب في خلق كثير من قومه. قيل: مائة وخمسون راكباً. فلما سلم على عمر رحب به عمر وأدنى مجلسه، وشهد الحج مع عمر في هذه السنة، فبينما هو يطوف بالكعبة إذ وطء إزاره رجل من بني فزارة فانحلّ، فرفع جبلة يده فهشم أنف ذلك

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨/ ٦٣.

الرجل. فاستعدى عليه الفزاري إلى عمر ومعه خلق كثير من بني فزارة، فاستحضره عمر فاعترف جبلة. فقال له عمر: أَقَدْتُهُ منك (أي قضيتُ باقتصاصه منك)؟. فقال: كيف، وأنا ملك وهو سُوْقَة؟. فقال: إن الإسلام جمعك وإياه، فلست تفضله إلا بالتقوى. فقال جبلة: قد كنت أظن أن أكون في الإسلام أعزّ مني في الجاهلية. فقال عمر: دع هذا عنك، فإنك إن لم تُرْضِ الرجل أَقَدْتُهُ منك. فقال: إذاً أتنصّر. فقال: إن تنصّرتَ ضربت عنقك.

فلما رأى الحدَّ قال: سأنظر في أمري هذه الليلة، فانصرف من عند عمر، فلما ادلهمّ الليل ركب في قومه ومن أطاعه، فسار إلى الشام ثم دخل بلاد الروم، ودخل على هرقل في مدينة القسطنطينية، فرحب به هرقل وأقطعه بلاداً كثيرة، وأجرى عليه أرزاقاً جزيلة، وأهدى إليه هدايا جميلة، وجعله من سمّاره، فمكث عنده دهراً.

ثم إن عمر كتب كتاباً إلى هرقل مع رجل يقال له: جثامة ابن مساحق الكناني.

فلما بلغ هرقلَ كتابُ عمر بن الخطاب قال له هرقل: هل لقيت ابن عمك جبلة؟.

قال: لا!.

قال: فالقَهْ، فذكر اجتماعه به وما هو فيه من النعمة

والسرور والحبور الدنيوي، في لباسه وفرشه ومجلسه وطيبه وجواريه، حواليه الحسان من الخدم والقيان، ومطعمه وشرابه وسروره وداره التي تعوض بها عن دار الإسلام.

وذكر أنه دعاه إلى الإسلام والعود إلى الشام فقال: أبعدَما كان مني من الارتداد؟.

فقال: نعم! إن الأشعث بن قيس ارتد وقاتلهم بالسيوف، ثم لما رجع إلى الحق قبله منه وزوجه الصدّيق بأخته أم فروة. قال: فالتهى عنه بالطعام والشراب، وعرض عليه الخمر فأبى عليه، وشرب جبلة من الخمر شيئاً كثيراً حتى سكر، ثم أمر جواريه المغنيات فغنَّينه بالعيدان من قول حسان يمدح بني عمه من غسان، والشعر في والد جبلة:

لله دَرُّ عِصابةٍ نادَمْتُهُمْ
يوماً بِجِلّقَ في الزمان الأولِ

أولادُ جَفْنَةَ حول قبر أبيهِمُ
قبر ابن ماريةَ الكريمِ المُفْضِلِ

قال: فأعجبه قولهن ذلك.

ثم قال: هذا شعر حسان بن ثابت الأنصاري فينا وفي ملكنا.

ثم قال لي: كيف حاله؟ قلت: تركته ضريراً شيخاً كبيراً.

ثم قال لهن: أطربنني، فاندفعن يغنين لحسان أيضاً:

لـمـن الـديـار أوحـشـتْ بـمَـعَـانِ
بـيـن أعـلا الـيـرمـوكِ فـالـصّـمَـانِ

فـالـقـريـاتِ مـن يـلامـس فـداريـا
فـكـسـاء لـلـقـصـور الـدوانـي

فـقـفـا جـاسـمٍ فـأوديـة الـصـفـر
مـغـنـى قـبـائـلٍ وهـجـان

ثم قال: هذا لابن الفريعة حسان بن ثابت فينا وفي ملكنا وفي منازلنا بأكناف غوطة دمشق.

قال: ثم سكت طويلاً، ثم قال لهن: ابكينني، فوضعن عيدانهن ونكّسْن رؤوسهنّ وقلن:

تـنـصـرت الأشـراف مـن عـار لـطـمـةٍ
ومـا كـان فـيـهـا لـو صَـبَـرْتُ لـهـا ضـررْ

تـكـنّـفـنـي فـيـهـا الـلـجـاج ونـخـوةٌ
وبِعْتُ بها العينَ الصحيحةَ بالعَورْ

فـيـا لـيـت أمـي لـم تـلـدنـي ولـيـتـنـي
رجعتُ إلى القول الذي قاله عمرْ

ويـا لـيـتـنـي أرعـى الـمـخـاض بـقـفـرةٍ
وكـنـت أسـيـراً فـي ربـيـعـةَ أو مُـضَـرْ

ويا ليت لي بالشام أدنى معيشةٍ
أجالس قومي ذاهبَ السمع والبصَرْ

أدين بما دانوا به من شريعةٍ
وقد يصبر العود الكبير على الدبرْ

قال: فوضع يده على وجهه فبكى، حتى بلّ لحيته بدموعه وبكيت معه، ثم استدعى بخمسمائة دينار هرقلية فقال: خذ هذه فأوصلها إلى حسان بن ثابت، وجاء بأخرى فقال: خذ هذه لك.

فقلت: لا حاجة لي فيها ولا أقبل منك شيئاً وقد ارتددْتَ عن الإسلام). [1] ولعل في هذه القصة فيها شيء من الطول ـ ومحل نظر ـ إلا أن في إيرادها فائدة لمعرفة ما وصلت إليه حال جَبَلة الذي آثر الدنيا على الآخرة على منهج هرقل.

كتابه ﷺ إلى يُحَنَّةَ بن رؤبة وزعماء أيلة

أيلة ميناء يقع غربي خليج العقبة من ناحية فلسطين، [2] وهو مكان ميناء إيلات في فلسطين المحتلة، وكانت بلدة حضرية

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨/ ٦٣ ـ ٦٦، حوادث سنة ٥٤هـ. (بتصرف).

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١/ ٢٩٢؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٧٠. ويُدعى اليوم ميناء «إيلات».

يقطنها خليط من السكان اليهود والنصارى، ويتزعمهم يُحَنّة بن رؤبة وهو من زعماء النصارى في المنطقة.

وحينما وصل الرسول ﷺ إلى تبوك أثناء غزوتها اختار وفداً بعثهم إلى أيلة برسالة إلى زعيمها يحنّة بن رؤبة وجاء في الرسالة الموجهة إليه وإلى زعماء أيلة ((إلى يحنّة بن رؤبة وسروات أهل أيلة سلم أنتم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو فإني لم أكن لأقاتلكم حتى أكتب إليكم، فأَسلمْ أو أعط الجزية، وأطع الله ورسوله ورسل رسوله، وأكرمهم واكسهم كسوة حسنة غير كسوة الغزاء، واكس زيداً كسوة حسنة، فمهما رضيت رسلي فإني قد رضيت وقد علم الجزية، فإن أردتم أن يأمن البر والبحر فأطع الله ورسوله ويمنع عنكم كل حق كان للعرب والعجم إلا حق الله وحق رسوله، وإنك إن رددتهم ولم ترضهم لا آخذ منكم شيئا حتى أقاتلكم، فأسبي الصغير وأقتل الكبير فإني رسول الله بالحق أؤمن بالله وكتبه ورسله وبالمسيح بن مريم أنه كلمة الله، واني أؤمن به أنه رسول الله وآت قبل أن يمسكم الشر، فإني قد أوصيت رسلي بكم، وأعط حرملة ثلاثة أوسق شعيراً، وإن حرملة شفع لكم وإني لولا الله وذلك لم أراسلكم شيئاً حتى ترى الجيش، وإنكم إن أطعتم رسلي فإن الله لكم جار ومحمد ومن يكون منه وإن رسلي شرحبيل وأبي وحرملة وحريث بن زيد الطائي فإنهم مهما قاضوك عليه فقد رضيته، وإن لكم ذمة الله وذمة محمد

رسول الله، والسلام عليكم إن أطعتم وجهزوا أهل مقنا[١] إلى أرضهم)). [٢]

وقد كان هذا الخطاب فيه أمان واضح لأيلة و أهلها حال رغبوا ذلك، وفيه تهديد صريح لهم ولتجارتهم البرية والبحرية حال عصيانهم، حيث كانت مدينتهم ملتقى السفن من اليمن وغيرها ومحطة الوصول إلى الشام فخشي يحنّة من العواقب، وقدم إلى رسول الله ﷺ في تبوك ومعه جماعة من أهل الشام ومن اليمن ومن سيارة البحر وتجاره، وكان يحنّة يلبس ملابس النصارى وفيها صلبان من ذهب وغيرها. [٣]

وقد استقبله الرسول ﷺ ومن معه، وعقد معه معاهدة كان فيها نصّ على أمان السفن. وهذا يعني وعي الرسول ﷺ بالحركة والتجارة البحرية وأهمية تأمينها.

وقد جاء في نص المعاهدة: ((بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمنة من الله، ومحمد النبي رسول الله ليحنّة بن رؤبة وأهل أيلة، لسفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد رسول الله، ولمن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل

(١) مقنا: قرية بالقرب من أيله كان يقطنها يهود، البكري، معجم ما استعجم، ج١/ ٢١٧، وياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١/ ٢٩٢، (وتوجد حالياً قرية قرب حقل شمال غرب المملكة، تسمى بهذا الاسم).
(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١/ ٢٧٧، ٧٨٢.
(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١/ ٢٩٠؛ الواقدي، المغازي، ج٣/ ١٠٣١.

البحر، ومن أحدث حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه. وإنه طيبة لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يَرِدُونَه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر. هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة بإذن رسول الله)). [١]

كان واضحاً لرسول الله أهمية تأمين الطرق البحرية والبرية لأهلها، وكان حريصاً على إعطاء ذلك الأمان لمن يستحقه من التجار، وهذا واضح في المعاهدة التي سبق ذكرها.

كانت الرسائل المختلفة تحقيقاً واقعياً وعملياً لعالمية الرسالة، وجهد الرسول ﷺ في تبليغها واهتمامه بأحوال البشرية جمعاء وعامة الناس مع خاصتهم، حيث كان يحذر هؤلاء الزعماء أن يحولوا بين رعاياهم ومستضعفيهم وبين سماعهم لدعوة ربهم ومن أرسله الله إليهم.

كانت هذه الرسائل أكبر دليل على حرص الرسول ﷺ على أداء الرسالة، وأن السلام والدعوة بالحسنى هي الأساس الأول للدعوة، وأن دعاوى انتشار الإسلام بالسيف لا صحة لها على الاطلاق.

كما أوضحت هذه الرسائل وما تبعها من أحداث اهتمام زعماء النصرانية وقوادها، وعلى رأسهم هرقل، بدعوة الرسول

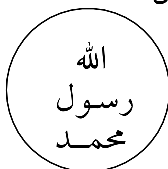
(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١/ ٢٨٩؛ أبو عبيد القاسم بن سلام، الأموال، ص ٢٥٨.

ﷺ، ومعرفتهم بنبوته وصدقه، وتنبّؤهم بانتشار دين الإسلام على حساب أراضيهم ومناطقهم ودياناتهم، وهذا ما حدث في زمانهم ورأوه بأعينهم سواء هرقل أم المقوقس أم كسرى وغيره.

كما تدل الرسائل على إيمان الرسول ﷺ بنصر الله لدينه رغم الإمكانات البسيطة عنده وضعف أمته بالمقاييس المادية، وتحقق وعد الله لرسوله ﷺ.

كما أنه ﷺ أختار لحمل الرسائل أقدر الناس على تحقيق أهدافها والوصول لمن أرسلت إليه، والقدرة على التخاطب معه، ومعرفة طبيعة وعقائد المجتمعات التي وُجِّهوا إلى زعمائها، كما تحلوا بالشجاعة والصبر والحكمة، وقد كان في أسلوب رسائله ﷺ اختصار ووضوح وتحقيق للهدف منها، واستشهاد بالآيات القرآنية الموجهة إليه ﷺ وإلى عامة الناس، خصوصاً في حديثه مع زعماء النصرانية، كما كان يُصدِّرها بالبسملة، ويؤكد فيها على عبادة الله وحده لا شريك له.

وقد عرف ﷺ أن الملوك لا يقبلون كتاباً إلا بختم، فصاغ خاتماً يؤدي المهمة وفيه أدب مع الله حيث جعل لفظ الجلالة في السطر الأول وكلمة رسول في السطر الثاني ومحمد في السطر الثالث بهذا الشكل:



روى أنس بن مالك ﷺ قال: لما أراد النبي ﷺ أن يكتب كتاباً إلى الروم قيل له إنهم لا يقرأون كتاباً إلا أن يكون مختوماً فاتخذ بيضة في يده ونقش فيها (محمد رسول الله).[1]

وقد خرجت هذه الرسائل بالإسلام خارج بلاد العرب للشعوب الأعجمية على اختلافها.

كان في الأحداث المصاحبة لبعث الرسائل إعجاز من الرسول ﷺ، حيث حدَّث عن تمزيق الله لملك كسرى، وقد حدث ذلك بعد أقل من عشر سنوات من رسالة الرسول ﷺ، حيث فتح المسلمون المدائن، وسقطت مملكة فارس على يد أصحاب رسول الله ﷺ ومنهم سلمان الفارسي الذي قال عنه الرسول ﷺ: ((سلمان منّا أهل البيت)).

تعد هذه الرسائل وما حملته من مبادئ أسلوباً في التعامل الدولي وتأكيداً لعالمية الرسالة، ونقطة تحول في دولة الإسلام في زمن النبي ﷺ وعلاقاتها بالعالم.

وتدل بعض الدراسات على وجود الأصول الجلدية لبعض هذه الرسائل التي ذكر منها رسالة الرسول ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط، ورسالته ﷺ إلى المنذر بن ساوى العبدي ملك

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسِّير، باب دعوة اليهود والنصارى، ج٣/ ٢٣٥؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٤٧؛ الكتاني، التراتيب الإدارية، ج٢/ ٦٥؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج٢/ ٣٩٩.

البحرين، ورسالته ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة، ورسالته ﷺ إلى كسرى، ورسالته ﷺ إلى قيصر الروم.(١)

ورغم كتابات المستشرقين عن هذه الأصول وإجراء دراسات معينة عليها في بعض المتاحف العالمية إلا أنه ينبغي التحفظ على ما ذكر حتى تُجرى مزيد من الأبحاث والتحقيقات والمقارنات من الخبراء المختصين بها.

وهناك العديد من الكتب والرسائل من الرسول ﷺ لزعماء وملوك ربما يكونون أقل أهمية ممن ذكرناهم، كما وجه عدداً منها لقبائل معينة يصعب الحديث عنها جميعاً وقد صدرت دراسات خاصة عنها ذات منهج علمي واضح.(٢)

ولاشك أن ربط أحداث السيرة، بعصر الراشدين، وما جرى خلاله من فتوح بكتب الرسول ﷺ لملوك وأمراء هذه

---

(١) انظر: التفصيلات الخاصة بهذه الأبحاث عند أبي الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص٢٩٢؛ ومحمد حميد الله الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص ١١؛ وخالد سيد علي، رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء، ص ١٨، ٣٠، ٤٤، ٥٥، ٦٢ ويشكك د. محمد غبان في صحة الأصول المحفوظة لهذه الكتب. انظر: الوثائق المكتوبة من النبي ﷺ وإليه جمعاً ودارسة، ص ٦٧٥.

(٢) انظر: ما كتبه محمد بن عبد الله غبان، مرويات الوثائق المكتوبة من النبي ﷺ، جمعاً ودراسة، وهي رسالة علمية أعدت لدرجة الدكتوراه بقسم التاريخ بكلية الدعوة وأصول الدين بالمدينة المنورة؛ وانظر محمد حميد الله، مصدر سابق، وخالد سيد علي، رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء.

المناطق له أهمية خاصة، كما أن ربط رسائل الرسول لأهل تلك المناطق ودخولها وأهلها في الإسلام وبقاء شعوبهم إلى اليوم الحاضر ضمن أمة الإسلام وأتباع محمد ﷺ له أهمية لكل دارس للتاريخ ولانتشار الإسلام بين أهل تلك المناطق، ولتاريخ هذه المناطق المعاصر.

فتح خيبر

(ربيع الأول سنة ٧هـ)[١]

كان وفد اليهود الذين حرضوا الأحزاب على غزو المدينة قد تحرك من خيبر، كما أن يهود خيبر كانوا يخططون لغزو المدينة، وقد اتصلوا ببعض القبائل لهذا الغرض، حيث عقدوا حلفًا مع غطفان، وأخذوا يجمعون يهود خيبر ووادي القري وتيماء وما جاورها لضرب المدينة.[٢]

وقد تأكدت هذه المعلومات للمسلمين بعد عودتهم من غزوة الحديبية، حيث كان من عادة الرسول ﷺ تسقُّط أخبار

---

(١) منطقة زراعية تقع شمال الحجاز، وبها مدينة حديثة حالياً، كان بها سبعة حصـون لليهـود زمـن النبـي ﷺ، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢/ ٤٠٩. (انظر: (http://ar.wikipedia.org) بتاريخ٣٠/ ٣/ ١٤٣٢هـ.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ١٩١، ٢٧٣، ٣٣٠ الواقدي، المغازي، ج٢/ ٥٣١، ٦٣٤؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ١٨٠، ٤٦١.

اعدائه ومتابعتها، فكانت خيبر تجمعاً لأعداء جدد، فاستعد المسلمون لهذا الأمر. وفي الوقت نفسه كان يهود خيبر، يبثون الدعاية عن قوتهم، ويشيعون أن لديهم قرابة عشرة آلاف مقاتل يعدونهم لقتال الرسول ﷺ، وأن لديهم حصونًا منيعة، كما أنهم أخذوا يهددون المسلمين ويتوعدونهم بطريقة مباشرة وغير مباشرة بوساطة بقايا اليهود في المدينة وبعض المنافقين فيها.[(١)]

وقد كانت ظروف المواجهة مع قريش مناسبة، نتيجة لصلح الحديبية الذي اتفق فيه المسلمون مع قريش على أن تتوقف الحرب بينهم عشر سنوات، فما كان من رسول الله ﷺ والمؤمنون معه إلا أن بادروا القوات اليهودية في خيبر قبل أن تبادرهم، حيث أخذ المسلمون استعدادهم وتوجهوا إليهم مع رسول ﷺ، وكانوا ألفًا وأربعمائة مقاتل.[(٢)]

وأثناء توجه المسلمين إلى خيبر، تحركت غطفان من نجد لمساعدة يهود خيبر، فعمل المسلمون على خديعتهم، حيث سربوا إليهم أخبارًا بأن بعض المسلمين قد توجهوا للإغارة على ديارهم الأصلية، فصدقت غطفان الخبر، ورجعت إلى ديارها تاركة يهود خيبر لمصيرهم،[(٣)] وفي الوقت نفسه فإن الرسول

(١) الواقدي، المغازي ج٢/ ٦٣٤، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ١٨١.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٢/ ١٠٧.

(٣) ابن هشام السيرة النبوية ج٣/ ٣٣٠، الواقدي: المغازي ج٢/ ٦٥٠، وانظر: رزق الله: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٠١.

ﷺ تعمد أن ينزل على خيبر من ناحية الشام،[1] أي في موقع بينها وبين ديار غطفان ليقف في وجه أي احتمال لغطفان أو ليهود شمال الحجاز في الوصول إلى ساحة المعركة أو مساعدة يهود خيبر.

وصل المسلمون ليلاً قرب خيبر فعسكروا ولم يتعرضوا لهم بأذى في الليل،[2] وعندما توجه اليهود في الصباح إلى مزارعهم فوجئوا بالمسلمين فرجعوا إلى حصونهم وهم يرددون ((محمد والخميس))، يقصدون الجيش، وكان مما قال ﷺ: ((خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)).[3]

كانت حصون اليهود بخيبر عديدة، وقد توزع المسلمون عليها لمحاصرتها، وكانوا يترامون بالنبل مع يهود خيبر حتى أصيب عدد من المسلمين جراء ذلك.[4]

كان الرسول ﷺ حريصًا على معرفة أحوال الحصون المحاصرة.[5] وكان حصن النطاة وهو أحد حصون خيبر لا

---

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ج٥/ ١٨٤.

(٢) البخاري، فتح الباري، ج١٥/ ٤٥، ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٣٠، الواقدي المغازي: ج٢/ ٦٤٣.

(٣) البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، حديث رقم: ٤١٩٧، ٤٢٠٠.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٣٤، الواقدي، المغازي، ج٢/ ٦٤٣، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ١٨٦.

(٥) الواقدي، المغازي، ج٢/ ٦٤٧، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ١٩١.

يوجد به سوى عدد قليل من المدافعين، وعلم الرسول ﷺ أنه مليء بالأسلحة والمؤن، وأن بداخله منجنيقًا ودبابة، فإن فتحه المسلمون فستساعدهم تلك الآلات على فتح بقية الحصون، فركز المسلمون حصارهم وهجومهم على هذا الحصن حتى تمكنوا من فتحه، فوجدوا فيه الأطعمة والمؤن ما أعانهم على أعدائهم، كما أنهم استفادوا مما فيه من أسلحة مختلفة في هجومهم على بقية الحصون الأخرى.[1]

وقد فتح المسلمون الحصون الواحد تلو الآخر، ومن ضمنها حصنا ناعم والصعب.[2]

وقد استعصى حصن (القموص) على المسلمين، فبشر الرسول ﷺ بفتحه في ما روى عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: ((لأعطين هذه الراية غدًا رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فبات الناس يدوكون (يضطربون) ليلتهم أيُّهم يُعْطاها.

فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال أين علي بن أبي طالب؟ فقيل يا رسول الله هو يشتكي عينيه قال ﷺ: فأرسلوا إليه، فأتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرئ، حتى كأن لم يكن به وجع،

---

(١) الواقدي، المغازي، ج٢/ ٦٤٧.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٣١، ٣٣٢، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد ج٥/ ١٨٧.

فأعطاه الراية فقال علي رضي الله عنه: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا. فقال عليه الصلاة والسلام: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حمر النَّعَم)).[1]

وقد فتح الله على عليٍ رضي الله عنه كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتساقطت بقية حصون خيبر واحدًا تلو الآخر، مما أضطر اليهود آخر الأمر أن يفاوضوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستسلموا للمسلمين على أن تحقن دماؤهم ويسمح لهم بالخروج من خيبر.[2] وبعد أن وقع الصلح بينهم والمسلمين على رحيلهم اتفق المسلمون معهم على أن يعمل يهود خيبر بالنخيل والمزارع، على أن لهم نصف الثمرة، وأن من حق المسلمين الاستغناء عنهم وإجلاؤهم متى شاؤا.[3] وكانت نتيجة هذه الغزوة استشهاد عشرين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ومقتل ثلاثة وتسعين من يهود خيبر وقد استمر حصار وقتال أهل خيبر بضعة عشر يومًا.[4]

---

(١) صحيح البخاري، (فتح الباري)، ج١٦/ ٥٧ ـ ٥٨.
انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣١٥.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، ١٦/ ٥٧.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٣٧؛ الواقدي، المغازي، ج٢/ ٦٩٠، ابن حجر، فتح الباري، ج ١٦/ ٥٧.

(٤) انظر أسماء الشهداء عند ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٣٤٣، الواقدي، المغازي، ج٢/ ٦٩٩؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ٢٠٨.

وبعد أن سالم يهود خيبر رسول الله ﷺ حاولت امرأة منهم أن تسمَّ رسول الله ﷺ عن طريق لحم شاة مطبوخة أهدتها إليه، ولكن الله سلمه منها.[1]

وقد ذكر أن وفاته ﷺ بعد ذلك بسنوات كانت من أثر ذلك السُّم، فقد روى ابن هشام: (وقد قال في مرضه الذي توفي فيه ودخلت أم بشر بنت البراء بن معرور تعوده: يا أم بشر إن هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أبهري من الأكلة التي أكلت مع أخيك بخيبر، قال: فإن كان المسلمون ليرون أن رسول الله مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوة).[2]

وبعد أن فتح المسلمون خيبر ورتبوا أمورها توجه رسول الله ﷺ ومن معه من المجاهدين إلى وادي القرى فاستقبلوا المسلمين بالرمي، فأصيب خادم لرسول ﷺ من جراء رميهم، فقاتلهم المسلمون، وفتحوا بلدهم عنوة وأبقاهم الرسول ﷺ على العمل في النخل بالنصف كفعله مع أهل خيبر.[3] فلما

---

(١) البخاري، فتح الباري، ج١٢/ ٢٦١؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٣٧؛ الواقدي، المغازي، ج٢/ ٦٧٧؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ٢٠٨.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية ج٣/ ٣٣٨، وانظر: وفاة النبي ﷺ من هذا الكتاب.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٣٨؛ الواقدي، المغازي، ج٢/ ٧٠٩؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ٢٢٩.

بلغت أخبار خيبر ووادي القرى بقية مناطق شمال الحجاز بادرت إلى مصالحة النبيﷺ، وخصوصًا فَدَك وتيماء وأيلة وغيرها.[1]

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٥٣، الواقدي، المغازي، ج٢/ ٧٠٦؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ٢١٤.

(تيماء): بُلَيْدةٌ صغيرة بين الشام ووادي القرى على طريق الحج الشامي، وقد اشتهرت بحصن الأبلق، وكان يقطنها جماعة من اليهود زمن الرسول ﷺ وهي (بلد حاضرة إلى اليوم). انظر: البكري معجم ما استعجم، ج١/ ٣٢٩، وياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢/ ٦٧.

(أيلة): تقع شمال بلاد الشام وهي ميناء على خليج العقبة وتسمى حالياً إيلات (انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١/ ٢٩٢).

(فداك): من أعمال المدينة بينها وبين خيبر مسيرة يومين (انظر: البكري معجم ما استعجم، ج٣/ ١٠، ١٥).

عُمْرة القضاء[1]

وتسمى عمرة الصلح، كان من بنود صلح الحديبية رجوع الرسول ﷺ عامه ذاك (وإذا كان عامك قابلاً خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيره).[2] وكان ﷺ قد وعد أصحابه دخول مكة حين ذهب معهم في غزوة الحديبية بناءً على رؤيا رآها الرسول ﷺ. وقد أشارت الآيات إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح]. كان بعلم الله وأمره تقديم فتح قريب وهو فتح خيبر[3] على دخوله ﷺ مكة معتمراً.

(١) وضع البخاري في صحيحه باباً بعنوان: «عمرة القضاء»، كتاب المغازي، ج٤/ ٨٤.
(٢) انظر: صلح الحديبية.
(٣) انظر: فتح خيبر.

وفي شعبان من السنة السابعة للهجرة بعد استكمال سنة من صلح الحديبية أمر ﷺ بأن يخرج معه معتمراً من شهد الحديبية، فخرج من عاش منهم وخرج آخرون حتى وصل عددهم ألفي معتمر، سوى من معهم من النساء والصبيان وحمل ﷺ السلاح الخفيف المذكور في الصلح، وساق الهَدْيَ وأحرم مع أصحابه، وقاد معه مائة فرس احتياطاً، ولم يظهر أي شكل للقتال، بل كان خروجاً سلمياً، فيه تلبية وتكبير وإحرام.[١]

وقدّم الرسول ﷺ محمد بن مسلمة بالخيل إلى مر الظهران، فلما رأته قريش علمت أن رسول الله ﷺ قادم، وحين وصوله ﷺ ترك السلاح في وادٍ قرب التنعيم[٢] وأخلت قريش له مكة، وصعدوا في الجبال يتفرجون على الرسول ﷺ. وكان عبدالله بن رواحة أخذ بناقة رسول الله ﷺ وهو يدخل مكة في مظهر يدل على احترام المسلمين وتقديرهم وحمايتهم لرسول الله ﷺ ويردد أبياتاً منها:

خلُّوا بني الكُفّارِ عن سبيـــــله
خلُّوا فكل الخير في رســـــوله
يا رب إني مؤمـــــن بقِـيْلِـهِ
أعــرف حـقّ الله فـي قَـبــولـــه

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٧٠.
(٢) التنعيم، مكان معروف على طريق المدينة حالياً، وبه مسجد عائشة، حيث يحرم منه المعتمرون من مكة اليوم. البلادي، معجم الأماكن الواردة في السيرة ص ٦٥.

نحن قتلناكم على تأويـــــله
كما قتلناكم على تنزيـــــله

ضرباً يُزيل الهامَ عن مَقِيـــــله
ويذهلُ الخليلَ عن خليـــــله[1]

وقد أشاعت قريش أن رسول الله ﷺ به ضعف، فعمد إلى ما يريهم صحته وصحة أصحابه وقوة أجسادهم بما يغيظ أعداءهم.

روى البخاري عن ابن عباس قال: صفّوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى، ثم قال: رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة، ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه، حتى إذا جاء واراه البيت منهم، واستلم الركن اليماني، مشى حتى يستلم الركن الأسود، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف، ومشى سائرها، فكان ابن عباس يقول: كان الناس يظنون أنها ليست عليهم، وذلك أن رسول الله ﷺ إنما صنعها لهذا الحي من قريش للذي بلغه عنهم، حتى إذا حج حجة الوادع فلزمها فمضت السنة بها).[2]

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٧١.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج٣/ ٣٧١، انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب عمرة القضاء، ج٥/ ٨٦.

وبعد أن أدى العمرة تزوج الرسول ﷺ ميمونة بنت الحارث ولم يبنِ بها، وبقي بمكة ثلاثة أيام، وفي نهايتها جاءه حويطب ابن عبد العزى في نفر من زعماء مكة وطلبوا منه الخروج فقال ﷺ: ((وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه قالوا: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا، فخرج رسول الله ﷺ وخلّف أبا رافع مولاه على ميمونة، حتى أتاه بها بسرف ـ أي بعَجَل ـ، فبنى بها رسول الله ﷺ هنالك ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة)).[1]

وعند خروج الرسول ﷺ من مكة لحقت به ابنة عمه حمزة، وكانت يتيمة فأخذ بيدها علي رضي الله عنه وأعطاها فاطمة وقال لها دونك ابنة عمك أحمليها، فحرص كل من جعفر وزيد بن حارثة أن يضموها إليهم، حتى تنازعوا مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه كل منهم يريد ضمها والنفقة عليها، واختصموا عند رسول الله ﷺ كل يريد أجر بَرِّها والإحسان إليها وتربيتها، فقضى بها رسول الله ﷺ لجعفر لوجود خالتها عنده، وقال: ((الخالة بمنزلة الأم)).[2]

ولعل في هذا إشارة إلى أن حنان الخالة قريب من حنان الأم، وستكون الصغيرة عند خالتها أكثر راحة وأماناً.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٧٢.

(٢) انظر: صحيح البخاري، باب عمرة القضاء، ج٥/ ٨٥.

غزوة مؤتة

(جمادى الأولى سنة ٨هـ)[(١)]

مع فتح خيبر كتب رسول ﷺ كتبًا إلى الملوك والأمراء يبلغهم دعوة الله. وكانت إحدى هذه الرسائل موجهة إلى حاكم [بصرى] بالشام، وقد أعطى الرسول ﷺ هذه الرسالة إلى الحارث بن عمير الأزدي ليحملها إلى ملك بصرى من قبل [هرقل] (الحارث بن أبي شمر الغساني)، لكن أحد أمراء غسان في الشام ويدعى (شرحبيل بن عمرو الغساني) قبض على مبعوث النبي ﷺ، فلما علم أنه يحمل رسالة من النبي ﷺ قتله، مع أن الرسل لا تقتل عادة.[(٢)]

---

(١) وضع ابن أبي شيبة في المغازي عنواناً «ما حفظت في بعث مؤتة»، ص٣٦٦.
وانظر: أبو مايلة العمري، بريك بن محمد بن بريك، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ط١، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٢٤هـ.

(٢) انظر: الواقدي، المغازي، ج٢/ ٥٧٥، ٥٧٦؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/١٢٨، ويرى أكرم العُمري في كتابه السيرة الصحيحة، ج٢/ ٤٦٧،=

ولما علم النبي ﷺ بمقتله غضب، وجمع جيشًا قوامه ثلاثة آلاف من المسلمين، وأَمَّر عليهم مولاه زيد بن حارثة، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فإن قتل فعبد الله بن رواحة رضي الله عنه، [1] فإن قتل فليرتضِ المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم. [2]

وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه مع الجيش حديث عهد بالإسلام جنديًا في صفوف المجاهدين، وأمر الرسول ﷺ الجيش بالتوجه إلى أطراف الشام وتأديب وتهييب القبائل النصرانية العربية، وإظهار قوة المسلمين والعودة مرة أخرى إلى المدينة، وقبل أن يتحرك الجيش التقى بهم رسول الله ﷺ وأمرهم بتقوى الله، وذكرهم بتعاليم دينهم في الحرب، ثم سلم الراية إلى زيد بن حارثة رضي الله عنه وشيعهم وودعهم. [3]

= ورزق الله في كتابه السيرة الصحيحة، ص ٥٤٣ ضعف هذا الخبر، وعلى أي حال فإن رسول الله ﷺ كان يتطلع إلى الجهاد ضد الروم ويبشر به أصحابه في فترات سابقة لهذه الغزوة، وإن كان هناك سبب معين في توقيت الغزوة فالجهاد في الأصل ماض ضد الروم وغيرهم ممن ظلم الناس واعتدى عليهم ومنعهم من سماع الحق، ، وذلك لإبلاغ كلمة الله وإعلائها لا فرضها.

(١) البخاري، فتح الباري، ج ١٦/ ٩٨؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٧٣؛ وابن أبي شيبة، المغازي، ص٣٦٧.

(٢) الواقدي، المغازي، ج٢/ ٧٥٦؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/ ١٢٨.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٧٣؛ الواقدي، المغازي، ج٢/ ٧٥٦، وانظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١٦/ ١٢٨.

وسلك الجيش طريقه إلى أطراف بلاد الشام.[1] هذا يعني تحرشاً مباشرًا لأول مرة بمملكة الروم وحدودها. وقد علم الروم والغساسنة بتحرك الجيش فأعدوا له جيشًا آخر لمقابلته، اشترك فيه متنصِّرة العرب من لخم وبهراء وجُذام وبلي، وكان ذلك الجيش يزيد على مائة ألف مقاتل، وقد عسكرت جيوش الروم في أرض البلقاء في الأردن حاليًا، وقد علم جيش المسلمين بذلك التجمع، فأرادوا أن يكتبوا للرسول ﷺ لعله يمدهم بمزيد من المجاهدين،[2] لكن الوقت قصير والعدو قريب ولن يمهلهم، وأبطال المسلمين يشجع بعضهم بعضًا على القتال، فالتقوا مع الروم في مكان يسمى مؤتة،[3] فقاتلوا قتال الأبطال، وكان حامل الراية زيد ين حارثة رضي الله عنه ((أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ عبد الله بن رواحة فأصيب))،[4] فأخذ الراية أحد الأنصار ودعا الناس إلى الاجتماع، ثم دفع الراية إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه،[5] الذي تمكن بعون الله ثم بخبرته العسكرية من إعادة تنظيم صفوف المسلمين، وقيادتهم في

---

(١) وضع البخاري في صحيحه بابًا سماه: (باب غزوة مؤتة من أرض الشام)، انظر: فتح الباري، ج١٦/ ٩٧.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٧٥؛ الواقدي، المغازي، ج٢/ ٧٦٠.

(٣) تقع مؤتة في بلاد الأردن حاليًا، ولمزيد من التفصيلات راجع علي الغيوم، تجربة مؤتة، مكتبة الرسالة، عمان الأردن، ١٤٠٦هـ.

(٤) من رواية البخاري، فتح الباري، ج١٦/ ١٠٠.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٧٩.

القتال، ومن ثم الانسحاب بهم في خطة محكمة (حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم)،[1] وقد جنب المسلمين المزيد من الخسائر، فرغم الفارق الكبير بين جيش الأعداء وجيش المسلمين فإن خسائر المسلمين كانت خمسة عشر شهيدًا،[2] وهذا في تصوري يعد نصرًا للمسلمين، مقارنة بموازين القوى في المعركة، وقد كان الرسول ﷺ يثني خيرًا على أولئك الشهداء ويقول عنهم: ((ما يسرني أو يسرهم أنهم عندنا)).[3]

وقد عاد الجيش بعد ذلك إلى المدينة، يقوده سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه، حيث كانت هذه أول معركة جهادية له في صفوف المسلمين بعد إسلامه، وقد أخبر الرسول ﷺ أهل المدينة بما جرى قبل وصول الجيش، فقد روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: ((أن النبي ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس، قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم)).[4] وهي فتح كما سماها رسول الله ﷺ.

---

(١) من رواية البخاري، فتح الباري، ج١٦/ ١٠١.
(٢) انظر: ابن هشام السيرة النبوية، ج ٣/ ٣٨٨، الواقدي المغازي، ج٢/ ٧٦٩.
(٣) البخاري، فتح الباري، ج ١٢/ ١٥٢.
(٤) من رواية البخاري، فتح الباري، ج ١٦/ ١٠٠.

وقد حزن ﷺ على وفاة جعفر وغيره ودعا لهم: «اللهم اخلف جعفراً في أهله بأفضل ما خلفت عبداً من عبادك الصالحين».[١] فتزوج بعد ذلك أبو بكر الصديق من أسماء بنت عميس زوجة جعفر واحتضن أولاده من بعده ثم تزوجها بعد ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأحتضن أولادها من جعفر وأبي بكر.[٢]

وعند قدوم الجيش إلى المدينة استقبلهم أهلها، وقد سمع الرسول ﷺ بعضهم يقول لهم: يا فرارون أفررتم وأنتم في سبيل الله؟ فقال ﷺ: ليسوا بفُرار ولكنهم كُرار إن شاء الله.[٣] وكانت لهم كرة وأي كرة، وذلك في فتوح الشام في اليرموك على يد خالد بن الوليد وأمثاله رضي الله عنهم ممن شارك في معركة اليرموك وتحطيم قوى الروم، وفتح دمشق وبيت المقدس وغيرها من بلدان الشام المباركة.

أخبر الرسول ﷺ بفضل شهداء مؤتة، وكان يرى أسامة بن زيد بعد وفاة أبيه زيد فيرق له وتدمع عيناه، وكذلك حينما يرى أبناء جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد أخبر ﷺ أنهم من الشهداء، من أهل الجنة، وأخبر أن لجعفر جناحين في الجنة فعرف في الأمة بهذه الصفة.[٤]

---

(١) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٧٠.
(٢) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج٤/ ٢٣١.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٨٢، الواقدي، المغازي، ج٢/ ٧٦٥.
(٤) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٧٤، ٣٧٥؛ وابن سعد، الطبقات، ج٤/ ٤١.

فتح مكة

(٢٠ رمضان سنة ٨هـ)

كان ضمن شروط صلح الحديبية ((أن من شاء أن يدخل في عقد محمد دخل فيه، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش دخل فيه))، فدخلت خزاعة في عقد النبي ﷺ، ودخلت بكر في عقد قريش،[١] فاعتدت بكر على خزاعة وساعدتهم في ذلك قريش، فعُد هذا نقضًا للعهد من قبل قريش، وقد جاء أحد زعماء خزاعة وهو عمرو بن سالم الخزاعي فأنشد الرسول ﷺ أبياتًا يستحثه فيها على العهد ومساعدتهم بناءً على العهد، وخصوصًا أن قريشًا ساعدت حلفاءها. وهذا اعتداء على حلفهم مع المسلمين.

وكان مما قال:

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٣١٨؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص٣٢٦.

يـا رب إنـي نـاشـد مـحـمــــــدا

حلف أبينا وأبيه الأتلــــدا[1]

فـانـصـر هـداك الله نـصـراً أعـتـدا

وادعُ عـــبـــاد الله يـــأتـــوا مـــددا

إلى آخر القصيدة، فقال ﷺ: نصرت يا عمرو بن سالم،[2] ثم جاء وفد آخر من خزاعة يطلب مناصرة النبي ﷺ فوعدهم، ثم إن قريشًا أحست بالخطر، وجاء زعيمها (أبو سفيان بن حرب) إلى المدينة ليجدد العهد مع النبي ﷺ، فدخل بيت ابنته أم المؤمنين (حبيبة بنت أبي سفيان)، حيث كان صهرًا للنبي ﷺ، فلما دخل حجرة ابنته أم المؤمنين أم حبيبة، وأراد أن يجلس على فراش النبي ﷺ رفعته أم حبيبة عنه، فقال أبو سفيان: يا بنيه ما أدري أرغبت بي عن الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ، فقال: والله لقد أصابك بعدي شرّ، ثم إن أبا سفيان أتى النبي ﷺ

(١) ابـن هشـام، السيـرة النبويـة، ج٤/ ٣٩٤؛ ابـن كثيـر، السيـرة النبويـة، ج٣/ ٥٢٧، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ٣٠٨؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٢٠.

(٢) انظـر: ابـن هشـام، السيرة النبوية، ج٤/ ٣٩٥، ابن كثير: السيرة النبوية ج٣/ ٥٢٧، (وانظر إلى تخريج د. اكرم العمري لها في السيرة النبوية الصحيحة ج٢/ ٤٧٣).

فكلمه فلم يرد عليه،[1] ثم أتى أبا بكر ﵁ ليتوسط له عند النبي ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، ثم كلم عمر بن الخطاب ﵁ فقال: أنا اشفع لكم عند رسول الله ﷺ والله لو لم أجد إلا الذرّ لجاهدتكم به، ثم أتى عليًا وعنده فاطمة (رضي الله عنهما) والحسن بن علي بينهما غلام صغير، فقال له علي: والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر لا نستطيع أن نكلمه فيه، فقال لفاطمة (رضي الله عنها): يا بنت محمد هل لك أن تأمري ابنك هذا أن يجير الناس فيكون سيد العرب؟ فقالت ما بلغ ابني هذا أن يجير الناس، فلما اشتد عليه قال لعلي ﵁: انصحني فقال له علي: أنت سيد كنانة فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرض قومك: قال أوترى ذلك يغني عني شيئًا؟ قال علي ﵁: لا ولكن لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد وقال إني قد أجرت بين الناس، فلما قدم مكة قال له أهلها ما زاد عليٌّ على أنْ سخر بك.[2]

ثم إن رسول الله ﷺ جهز الناس للغزو، وكان حريصًا على أن لا تعلم قريش بخبر تحركه، وأرسل إحدى سراياه الطلائعية إلى جهة غير مكة حتى يظن الناس أنه يجهز لتلك الجهة، وفي الوقت نفسه أخبر خاصة أصحابه أنه متوجه إلى مكة وطلب منهم

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤/ ٣٩٧.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٣٩٦، ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ٥٣١؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٢٦.

أن يكتموا الخبر، وقال اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها.

وخرج الرسول ﷺ إلى مكة في رمضان وخرج معه خمسة آلاف من المهاجرين والأنصار، ولحقت به جموع مسلمة من قبائل مزينة وسُليم وغِفار وجُهينة وتميم وأسد، حتى كان مجموع جيشه حين وصل قرب مكة عشرة آلاف مقاتل،(١) نزل بهم رسول الله ﷺ مر الظهران.

وقابل العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه الرسول ﷺ وهو في الطريق إلى مكة مظهرًا إسلامه،(٢) وقيل إنه كان يكتم إسلامه قبل ذلك بوقت طويل، وله مواقفه مع النبي ﷺ منذ بيعة العقبة الثانية تدل على ذلك،(٣) وكان العباس حريصًا على إسلام قومه، فركب بعد ذلك بغلة النبي ﷺ وأخذ يبحث عن من يبعثه إلى قريش في مكة لعلهم يأتون النبي ﷺ يأمنونه أو يسلمون، وكان ﷺ قد أمر المسلمين أن يكثروا نيرانهم ـ وكانوا في الليل ـ ليرعبوا أهل مكة حتى لا يقاتلوا، فأشعلت قرابة عشرة آلاف نار

---

(١) من رواية البخاري، ابن حجر، فتح الباري، ج١٦/ ١١١، ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٤٠٠، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/ ١٣٥.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٤٠٢، ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ٥٤٣؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص٣٢٩.

(٣) انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب (بهامش الإصابة ج٣/ ٩٥)، ابن حجر، فتح الباري، ج١٤/ ٢٢٣؛ الإصابة، ج٢/ ٢، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢/ ٧٨.

في وقت واحد،[1] فلما رأتها قريش خرج أبو سفيان ليستطلع الخبر وكان زعيمها، فلقيه العباس ﷺ عم النبي ﷺ فأمنه،ثم أتى به النبي ﷺ فأمضى تأمين العباس إياه، فلم يعرض له المسلمون بشر، وفي الصباح جاء به العباس ﷺ إلى النبي ﷺ فأعلن إسلامه، ثم إن العباس قال للنبي ﷺ: إن أبا سفيان يحب الفخر عند قومه فلو أمنت من دخل داره.[2]

وكان النبي ﷺ حريصًا أشد الحرص على أن يكون دخوله إلى مكة سلميًا، وأن لا يراق دم، ولذا فعند دخوله مكة قسم جيشه إلى أربعة أقسام تدخل من جهات مكة الأربع، مظهرة قوتها، وكافة عن الناس، حتى يستسلم أهل مكة للأمر الواقع ويسلموا بسلام، وفي الوقت نفسه أعلن الرسول ﷺ: ((أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن))،[3] وبذلك أتاح كل فرص الأمان لمن رغب فيه، ودخل رسول الله ﷺ مكة بسلام وركزت رايته في الحجون.[4]

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤/ ٤٠٣؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٤/ ٥٤٧، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ٣٢٤، ٣٢٥؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٢١.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٤٠٣؛ ابن كثير؛ السيرة النبوية، ج٣/ ٥٤٨، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/ ٣٣٠.

(٣) البخاري، فتح الباري، ج١٦/ ١٢٢؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٤٠٣؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ٥٤٩؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ٣٣٠؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص٣٤٤.

(٤) البخاري، فتح الباري، ج٦/ ١١٨.

ولقد لقيت كتيبة خالد بن الوليد ﷺ المسلمة بعض المقاومة من مقاتلي قريش المشركين التي سرعان ما سقطت،[1] وفر المشاركون فيها إلى بيوتهم أو إلى خارج مكة. وكان دخول رسول الله ﷺ دخول المتواضعين لله حيث كان مطأطئ الرأس خاشعًا لله تعالى،[2] وكان يقرأ سورة الفتح،[3] ثم توجه إلى الكعبة وطاف بالبيت سبعة أشواط ثم قال ﷺ: لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل دم أو مأثرة فهو تحت قدميِّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ثم قال: يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم. فقال ﷺ قولته المشهورة: اذهبوا فأنتم الطلقاء.[4] ثم دعا بسادن الكعبة فأخذ منه المفتاح ففتحت له الكعبة،[5] فوجد بها صورًا فأمر بها فطمست، ثم دار على الأصنام في الحرم، وكانت ثلاثمائة

---

(١) البخاري، فتح الباري، ج١٦/ ١١٩؛ ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤/ ٤٠٧، ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ٥٦٠؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٢٩.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٤٠٥؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ٥٥٥؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ٣٤٢.

(٣) البخاري، فتح الباري، ج ١٦/ ١٢٣؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ٥٥٥.

(٤) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج١٦/ ١٢٩؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٤١٢،٤١١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣/ ٥٧٠؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ٣٦٤.

(٥) البخاري، فتح الباري، ج١٦/ ١٢٨؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٢٣.

وستين صنمًا بما يقارب عدد أيام السنةوكان يشير إليها ويقرأ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء]، فأسقطها جميعًا وأمر بها فحطمت.(١) ولم يدع رسول الله ﷺ شيئاً من الأصنام إلا حطمة ولا صوراً إلا مسحها.(٢)

وقد ورد عن ابن أبي شيبة بسند صحيح أن النبي ﷺ دخل مكة حين دخلها وهو معتمر بشقة بُردٍ أسود، فطاف على راحلته القصواء وفي يده محجن يستلم به الأركان، فما وجدت لها مناخاً في المسجد حتى نزل على أيدي الرجال، ثم خُرج بها حتى أنيخت بالوادي، ثم خطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: ((أيها الناس إن الله قد وضع عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بآبائها، الناس رجلان فَبَرٌّ تقي كريم على الله، وكافر شقي هيّن على الله، أيها الناس إن الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات]، أقول هذا واستغفر الله لي ولكم))، ثم عدل إلى جانب المسجد، فأتى بدلو من ماء زمزم فغسل بها وجهه ما تقع قطرة إلا في يد

---

(١) رواه البخاري، فتح الباري، ج ١٢٧/١٦؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص٣٣٣.

(٢) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٤١.

إنسان، إن كانت قِدْر ماء يحسوها، وإلا مسح بها، والمشركون ينظرون فقالوا: ما رأينا ملكاً قط أعظم من اليوم، ولا قوماً أحمق من القوم، ثم أمر بلالاً فرقى على ظهر الكعبة، فأذن بالصلاة، وقام المسلمون فتجردوا في الأزر وأخذِ الدِّلاءِ وارتجزوا على زمزم يغسلون الكعبة ظهرها وبطنها، فلم يدعوا أثراً من المشركين إلا محوه أو غسلوه.[١]

وفي هذه الرواية وصف دقيق لأفعال الرسول ﷺ وخطبته بعد الفتح.

ثم بايع الرسول ﷺ من بايع من الرجال على الإسلام، ثم بُويعت النساء على الإسلام وعلى شروط أخرى خاصة بهن.[٢] وحين حضرت صلاة الظهر رفع بلال صوت الحق من على ظهر الكعبة معلنًا الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله. وقد كره بعض حديثي الإسلام من قريش رؤيتهم وسماعهم لذلك، ثم ندموا على ما قالوا بعد أن حَسُن إسلامهم.[٣] وهكذا تطهرت مكة من الشرك وانتهت قوتها المعاندة للإسلام، وأصبحت إحدى مدن المسلمين، بل أهمها،

---

(١) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٤١.

(٢) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ٣٧١.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية ج ٤/ ٤١٣، ابن كثير: السيرة النبوية ج٤/ ٥٧٥، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ج٥/ ٣٧٢.

حيث نظمها رسول الله ﷺ وعين عليها عتاباً ابن أسيد أميرًا.[1]

وقد اهتم رسول الله ﷺ بتعليم أهل مكة الإسلام، حيث بقي عندهم تسعة عشر يومًا،[2] غادر بعدها لملاقاة قبيلتي ثقيف وهوازن اللتين استعدتا لقتال رسول الله ﷺ بعد أن فتح مكة، وقد كان فتح مكة سببًا عظيماً في خفة حدة العرب في حرب الإسلام، حيث دخل الناس بعد ذلك في دين الله أفواجًا،[3] بعد دخول قريش فيه وسقوط أقوى قوى الشرك المعادية للإسلام. وصدق الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر].

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٥/ ٤٤٦ و ابن حجر، الإصابة، ج٢/ ٤٥٢ والطبري، تاريخه، ج٣/ ١٦٢.
(٢) صحيح البخاري (فتح الباري) ج١٦/ ١٣٢.
(٣) انظر البخاري: (فتح الباري) ج١٦/ ١٣٤.

غزوة حنين والطائف

(شوال سنة ٨هـ)[١]

تأهبت هوازن، وعلى رأسها ثقيف، لملاقاة المسلمين بعد أن فتحوا مكة، وخرجت معهم غطفان وغيرها، وأخذوا معهم بنيهم وذراريهم ليصمدوا في القتال ومواجهة النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين،[٢] وتأكد الرسول ﷺ من صحة الخبر، فخرج بجيش الفتح وهم عشرة آلاف مقاتل (كما خرج معه ﷺ عشرة آلاف من الطلقاء)[٣] ـ مُسلِمة الفتح ـ حتى أن بعضهم اغتروا

---

(١) عقد البخاري بابًا سماه باب قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ إلى ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ انظر: فتح الباري، ج٥/ ٩٨؛ كما وضع باباً سماه «باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان»، ج٥/ ١٠٢؛ ووضع ابن أبي شيبة عنوان «ما ذكروا في الطائف، ص٣٥٩، وعنواناً آخر «غزوة حنين وما جاء فيها»، ص٣٧٨.

(٢) انظر: البخاري، فتح الباري، ج١٦/ ١٧٢؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٤٣٨.

(٣) صحيح البخاري، فتح الباري، ج١٦/ ١٧٢.

بكثرتهم وقالوا: لن نغلب اليوم من قلة، واستعار الرسول ﷺ أسلحة من يعلى بن أمية عارية مضمونة، وكان من المؤلفة قلوبهم، ثم أعادها إليه بعد الغزوة وشكره على ذلك.[١]

كانت هوازن قد اجتمعت في حنين يتزعمها مالك بن عوف، وقد أمر قومه أن يحملوا نساءهم وأموالهم حتى يكون ذلك دافعًا لهم على الثبات عند اللقاء، وقد عاب عليه دريد بن الصُمة وكان مع هوازن شيخًا لا يغني شيئًا،لكنه صاحب حكمة، وكان مما قال له: إنها إن كانت لك لم تنفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فُضِحْتَ في أهلك ومالك.[٢]

ودخل المسلمون وادي حنين، ولم يكونوا يعلمون أن القوم قد كمنوا لهم، وذلك في مطلع الصبح، وكان جيش المسلمين كثيفاً، وفيه من القبائل والطلقاء وغيرهم أكثر مما فيه من المهاجرين والأنصار، وقد فوجئت جموع المسلمين بهجوم مباغت من هوازن، فتفرقت طلائعهم وخصوصًا تميم والطلقاء من أهل مكة واضطربت صفوف الجيش، فثبت رسول الله ﷺ ومعه بعض المهاجرين والأنصار، منهم عمه العباس وأبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم، وانحاز ﷺ يمين الجيش وجعل ينادي ((فنادى نداءين لم يخلط بينهما، التفت عن يمينه فقال يا معشر الأنصار،

---

(١) انظر: تخريج ذلك عند رزق الله، السيرة النبوية، ص ٥٨٣.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٤٣٨؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد ج ٥/ ٤٦٠.

قالوا لبيك يا رسول الله، ابشر نحن معك. ثم التفت عن يساره فقال: يا معشر المهاجرين، قالوا لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك، وهو على بغلة بيضاء، فنزل فقال: أنا عبدالله ورسوله،[1] أيها الناس هلمّوا إليّ أنا رسول الله أنا محمد بن عبدالله))، ثم أمر الرسول ﷺ عمه العباس وكان جهور الصوت أن ينادي يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة، وكان ﷺ ينادي ((أنا النبي لا كَذِبْ أنا ابن عبدالمطلب))،[2] فلما سمع المهاجرون والأنصار النداء أجابوا لبيك لبيك، فاجتمعوا على رسول الله ﷺ فاستقبل بهم الأعداء. واشتد القتال بين المسلمين وهوازن حتى قال ﷺ ((الآن حمي الوطيس))،[3] فهو أول من قالها.[4] وقاتل المسلمون مع رسول الله ﷺ قتال الأبطال، وأخذ الرسول حفنة من التراب فرمى بها وجوه القوم وهو يقول: «شاهت الوجوه»،[5] فانهزموا. وبعد وقت قصير تأكدت الهزيمة في صفوف الأعداء ورجع المسلمون بالأسرى

---

(١) رواه البخاري، فتح الباري، ج ١٦/ ١٧٢.

(٢) من رواية البخاري، فتح الباري، ج١٦/ ١٤٣؛ وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية ج٣/ ٤٤٤، ٤٤٥؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ٤٧١؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٧٨.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية ج٤/ ٤٤٥، وانظر: تخريجها في رزق الله، السيرة النبوية ص٥٨٩.

(٤) انظر: السهيلي، الروض الأنف، ج٤/ ١٣٨.

(٥) رواه مسلم، انظر: رزق الله، السيرة النبوية، ص ٥٨٩.

والغنائم،[1] وقتل من الأعداء ما يزيد على سبعين رجلاً، واستشهد جماعة من المسلمين.[2]

وأرسل ﷺ السرايا لملاحقة المهزومين، والقضاء عليهم أو تفريق قوتهم، ونجحت بعوث الرسول ﷺ وأمر ﷺ بالغنائم والسبايا والأسرى فجمعوا بالجُعرانة.[3] وبعد أن هدأت الأمور واصل الرسول ﷺ مسيرته إلى الطائف، وهي المقر الرئيس لثقيف التي جمعت بقية هوازن على حرب رسول الله ﷺ.

وكانت الطائف محصنة بالأسوار التي تطيف بها وهي سبب تسميتها،[4] ولذلك لم يتمكن الرسول ﷺ من اقتحامها، فحاصرها نيفًا وعشرين ليلة،[5] ونصب عليها المنجنيق الذي

---

(١) انظر: البخاري، فتح الباري، ج١٦/ ١٧٢.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٤٤٩.

(٣) انظر: ابن حجر، فتح الباري، ج١٦/ ١٦٢؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٤٨٨؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ٤٨٩؛ د. أكرم العمري، السيرة الصحيحة، ج٢/ ٥٠٤؛ رزق الله، السيرة النبوية، ص٥٩٦؛ (والجِعْرَانه: شرقي مكة ترتبط بطريق الطائف السيل السريع، بطريق فرعي يظهر لمن ينظر على الطريق)؛ البلادي، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ص٨٣.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٤/ ٩؛ وانظر: د. عبد الجبار منسي العبيدي، الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية، ص١٦.

(٥) وقد رأى قوم غير ذلك في مدة الحصار، انظر: الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ٥٦٥؛ د. أكرم العمري، السيرة الصحيحة، ج٢/ ٥٠٧، رزق الله، السيرة النبوية، ص٥٩٦.

أشار به سلمان الفارسيﷺ، ورماها به لكنه لم يؤثر في أهلها،[1] واستشهد مجموعة من الصحابة من رَمي أهل الطائف للمسلمين بالنبال وغيرها.

وقد حاول نفر من المسلمين اقتحام الأسوار عن طريق دبابة صنعوها من الخشب والجلود، احتموا داخلها واقتربوا بها من الأسوار فرمى عليها أهل الطائف قطع حديد محماة فأحرقت الجلود وأثرت في الخشب فخرج من بداخلها من المجاهدين، فرموهم من على الأسوار بالنبال فقتلوا منهم رجالاً.[2] ونزل بعض رقيق أهل الطائف إلى المسلمين فأعلنوا إسلامهم فأعتقهم الرسول ﷺ.[3] ثم إن رسول الله ﷺ بعد أن طال الحصار أخبر أنه لم يُؤذن له في فتح الطائف، ورحل وتركها لا يأسًا منها ولكن طمعًا في أن يأتي أهلها مسلمين طوعًا من تلقاء أنفسهم، حيث دعا لهم قائلاً ((اللهم اهدِ ثقيف))،[4] وتوجه الرسول ﷺ إلى

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤/٤٨٣، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ٥٦٠، وانظر: د. أكرم ضياء العمري، السيرة الصحيحة، ج٢/ ٥٠٩؛ رزق الله، السيرة النبوية، ص ٥٩٥.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤/ ٤٨٣؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ٥٦١؛ وانظر: تخريج هذه الحادثة عند أكرم العمري، السيرة الصحيحة، ج٢/ ٥٠٩؛ وانظر: عبد العزيز العمري، الحرف والصناعات في الحجاز في العصر النبوي، ص ٢٢٨.

(٣) انظر: صحيح البخاري (فتح الباري)، ج ١٦/ ١٦١؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤/ ٤٨٥؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/ ٥٦٢.

(٤) انظر تخريجها عند رزق الله، السيرة النبوية، ص ٥٩٦.

مكة وتوقف في الطريق بالجعرانة، حيث مقر الغنائم والأسرى والسبايا من هوازن وأحلافهم، وفي الجعرانة انتظر رسول الله ﷺ اتصالاً من هوازن أو توبة عما جرى منهم مع المسلمين، وبعد أيام من الانتظار قسم رسول الله ﷺ الغنائم والسبي على المسلمين. ثم جاءت وفود هوازن معلنة إسلامها وتوبتها عما بدر منهم في حق رسول الله ومن معه من المسلمين وطلبوا من الرسول ﷺ أن يرد عليهم أموالهم وأولادهم، وقال أحد شعرائهم قصيدة طويلة يستشفع فيها برسول الله ﷺ مطلعها:

أمنن علينا رسول الله في كرم

فإنك المرء نرجوه وندخر[1]

فخيرهم الرسول ﷺ بين أن يأخذوا أموالهم، أو أولادهم ونساءهم، فاختاروا الأولاد والنساء ((فقال ﷺ: معي من ترون، وأَحبُّ الحديث إليَّ أَصْدقه، وقد كنت استأنيت بكم))، وكان أنظرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف، فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير رادّ لهم إلا إحدى الطائفتين قالوا: فإنا نختار سبينا، فقام رسول ﷺ فأثنى على الله بما هو أهل له، ثم قال: ((أما بعد، فإنا إخوانكم قد جاؤا تائبين وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه

(١) انظر: القصيدة: عند الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/ ٥٧١.

إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل، فقال الناس: قد طيبنا لك ذلك يا رسول الله)). [1]

وقد بادر المسلمون بالتنازل عن نصيبهم من السبي تقليدًا لرسول الله ﷺ، ثم أوصى الرسول ﷺ هوازن، وقال لهم: أخبروا مالك بن عوف ـ زعيم هوازن ـ إن أتاني مسلمًا رددت عليه أهله وماله ومائة بعير، فخرج من الطائف سرًا وأتى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه وعينه الرسول على من أسلم من القبائل التي حول الطائف، وأصبح يغير بهم على سَرْح مشركي ثقيف حتى ضيق عليهم. [2]

وحينما قسم الرسول ﷺ الغنائم أعطى منها القبائل والمؤلَّفة قلوبهم من مسلمة الفتح وغيرهم، ولم يعط الأنصار منها شيئًا، فوجد بعضهم في نفسه فجمعهم الرسول ﷺ منفردين، وخطبهم ((وكان مما قال: يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضِلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله آمن. قال ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله؟ قال: لو شئتم لقلتم كذا وكذا. ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وسلكوا شعبًا

---

(١) من حديث البخاري (فتح الباري)، ج ١٦/ ١٤٥ ـ ١٤٧.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٤٩١؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ٦٨٣.

لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار)). [(١)] فبكى القوم حتى أَخْضَلوا لحاهم وقالوا: ((بلىٰ رضينا برسول الله قسمًا وحظاً وتفرقوا))، [(٢)] ثم أحرم الرسول ﷺ معتمرًا من الجعرانة، ودخل مكة، وبقي بها عدة أيام، غادر بعدها إلى المدينة، وبعد أشهر عدة كثر الإسلام حول الطائف وبين أهله. ثم قدم وفد منهم على رسول الله ﷺ وفاوض الرسول ﷺ عن قومهم، وانتهت تلك المفاوضة بإسلامهم، ودخول مدينتهم في الإسلام وقبولهم تحطيم الأصنام. [(٣)]

وبإسلام الطائف أصبحت جميع مدن الحجاز خاضعة للحكومة النبوية، يديرها أمراء عينهم رسول الله ﷺ.

وقد نزلت بعض الآيات تتحدث عن غزوة حنين، من ذلك قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة].

---

(١) من رواية البخاري (فتح الباري)، ج١٦/ ١٦٣ ـ ١٩٦؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص٣٨٧.

(٢) انظر: البخاري (فتح الباري)، ج١٦/ ١٧١، وشرح ابن حجر لما في الحديث؛ وابن الأثير، الكامل، ج٤/ ٢٧٢.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٥٣٧، ٥٤١؛ وانظر: د. أكرم العمري، السيرة الصحيحة، ج٢/ ٥١٢؛ د. رزق الله، السيرة النبوية، ص٦٥٩؛ وانظر: وفد الطائف من هذا الكتاب.

غزوة تبوك

(رجب سنة ٩هـ)[١]

كانت أحداث غزوة مؤتة التي وقعت بين المسلمين والروم وأعوانهم من نصارى العرب سنة ٨ هـ هي أول احتكاك بين المسلمين والروم، لا تزال ماثلة في ذهن الرسول ﷺ، حيث استشهد مجموعة من الصحابة. وعزم الرسول ﷺ على قتال الروم انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة]. ولذا فقد كانت هذه الغزوة موجهة أصلاً وبوضوح ضد الروم، ولذلك فإن الرسول ﷺ حينما ندب المسلمين لهذه الغزوة أخبرهم أنها متوجهة إلى نواحى بلاد

(١) لمزيد من التوسع حول أحداث هده الغزوة ورواياتها ودراسة تلك الروايات انظر: عبد القادر حبيب الله السندي: الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك، مكتبة المعلا الكويت، ١٤٠٦هـ؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، عنوان «ما حفظ أبو بكر في غزو تبوك»، ص٣٩٦.

الروم.[1] وكان يدرك أن للروم عيوناً من منافقي المدينة، كما أنه أراد من جنده الاستعداد، حيث إنهم سيبعدون الشقة، وكان الجو حارًا جدًا، والبلاد مجدبة، والناس في عسرة، وثمار المدينة من تمر وعنب وغيرها قد طابت،[2] والناس ينتظرونها طوال العام، ولذلك فإن الخروج إلى تبوك كان صعبًا.

وبالتالي فإن المنافقين قد سقطوا في مستنقع الكذب، حيث كانوا يعتذرون عن الخروج مع النبي ﷺ زورًا وبهتانًا ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة]،[3] وقد تداعى المنافقون إلى التخلف عن رسول الله ﷺ وعدم الخروج معه في زمن الحر وقال الله عنهم: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة].[4]

ودعا النبي ﷺ أصحابه للنفقة في هذه الغزوة، فبادر أغنياء الصحابة في ذلك وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وغيرهم ﷺ،

---

(١) انظر: الحديث الذي رواه البخاري عن كعب بن مالك: البخاري (فتح الباري)، ج ١٦/ ٢٤٢.

(٢) عنوان البخاري لهذه الغزوة (باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة)، فتح الباري ج١٦/ ٢٣٧؛ انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٩٨.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤/ ٥١٦.

(٤) تفسير ابن كثير، ج٢/ ٨٩٨.

وأنفق عثمان ﵁ نفقة كبيرة كان فيها ثلاثمائة بعير وألف دينار حتى قال الرسول ﷺ ما ضرّ عثمان ما فعل بعد ذلك)). وقال عنه: ((من جهز جيش العسرة فله الجنة))،(١) كما قال ﷺ: (اللهم أرض عن عثمان فإني راض عنه).(٢) وقد جاء رجال من المسلمين إلى النبي ﷺ وهم أهل حاجة ويرغبون في الخروج مع الرسول ﷺ ولكن الحاجة وعدم وجود الراحلة منعتهم من ذلك. فذكروا حاجتهم للنبي ﷺ فقال لهم: ((لا أجد ما أحملكم عليه))، فرجعوا وأعينهم تفيض من الدمع،(٣) وجاء مُعذرون من الأعراب ليعتذروا.

وتخلف ثلاثة من الصحابة تكاسلاً، وهم يريدون اللحاق بالرسول ﷺ، لكنهم كانوا صادقين في ذكر حالهم فعفى الله عنهم ونزلت فيهم آيات قرآنيه.(٤)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ

(١) من حديث البخاري (فتح الباري)، ج١٤/ ١٩٥.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٥١٨.
(٣) ابن كثير، تفسيره، ج١/ ٩٠٢.
(٤) انظر: حديث كعب بن مالك عند البخاري (فتح الباري)، ج١٦/ ٢٤١؛ وعند ابن أبي شيبة في المغازي، ص ٣٩٨.

أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ [التوبة].

كانت هذه الغزوة بحق امتحانًا للمجتمع المسلم غنيهم وفقيرهم مؤمنهم وضعاف الإيمان منهم، كما كان للمنافقين وبقايا اليهود دور في التثبيط، حيث كان لكل صف موقف ولكل حادث حديث، وكانت هذه الغزوة آخر غزوات الرسول ﷺ وقد تقدمت به السن، حيث تجاوز الستين من عمره ﷺ، ورغم ذلك حرص على أن يقودها بنفسه، إذ تعد مقدمة غزوات المسلمين في بلاد الروم، وفي الانطلاقة العالمية للإسلام.

تجمع من المسلمين ثلاثون ألف مقاتل خرج بهم رسول الله ﷺ كان منهم عشرة آلاف فارس،(١) وهذا الجيش يعد أكبر جيش للمسلمين تجمع في حياة الرسول ﷺ وأخذ المسلمون طريق تبوك، ومروا في طريقهم على مدائن صالح،(٢) فأمرهم النبي ﷺ بالعجلة وأن لا يدخلوا بيوت القوم إلا باكين أو متباكين.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، ج١٦/ ٢٤٢، ابن هشام، السيرة النبوية ج٤/ ٥٢٠؛ الصالحي الشامي، وانظر: د. رزق الله، السيرة النبوية، ص ٦٢٣؛ د. أكرم العُمري، السيرة الصحيحة، ج ٢/ ٥٣١.

(٢) روى البخاري عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: ((لما مر النبي ﷺ بالحجر قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم. إلا ان تكونوا باكين. ثم قنع رأسه وأسرع حتى أجاز الوادي)) (فتح الباري، ج١٦/ ٢٥٥).

وقد واصل الرسول ﷺ مسيره حتى وصل إلى تبوك فأقام بها بضع عشرة ليلة، كان خلالها يبعث سراياه وطلائعه لمعرفة أخبار الروم، كما كان يبعثها إلى المواقع المجاورة. وكان زعماء القبائل وحكام القرى القريبة منه يأتون إليه. وقد أَسَر خالد بن الوليد في أحد سراياه أُكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل فجاء به إلى الرسول ﷺ، فعقد الذمة لنفسه ولقومه وأقر بدفع الجزية فأطلقه ﷺ،(١) كما جاء (يُحَنّة بن رؤبه) صاحب أيلة فدفع الجزية لرسول الله ﷺ وعقد الذمة لقومه، وجاءه أهل أذرح والجرباء، فأمنهم الرسول جميعًا وعقد لهم الذمة وكتب لهم كتبًا. (٢)

ويظهر أن الروم كانوا على علم بتحرك الرسول ﷺ، ومن معه ووصولهم إلى تبوك وإظهار قوتهم في أطراف بلاد الروم، بل إن بعضها يُعدّ داخل حدود الروم. (٣) ومع كل هذا فإن

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٥٢٦، ابن كثير، السيرة النبوية، ج٤/ ٣٠.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٥٢٥، ٥٢٦، ابن كثير، السيرة النبوية، ج٤/ ٢٩. (انظر: كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل الروم من هذا الكتاب).

(٣) نقل ابن كثير عن الإمام أحمد رواية عن وصول رسول من ملك الروم هرقل إلى رسول الله ﷺ في تبوك وتبليغه إياه رسالة منه وهي قصة عجيبة قال عن إسنادها لا بأس به (انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٤/ ٢٧ ـ ٢٩) وانظر: تلك الرواية عند أحمد في المسند، ج٣/ ٤٤٢. وانظر: كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل من هذا الكتاب).

قواتهم لم تتحرش بالمسلمين أو تحاول مصادمتهم أو عرقلتهم مع قدرتها على ذلك، ولعل مما يؤكد متابعتها للموقف بدقة أن ملك غسان قد أرسل إلى (كعب بن مالك)، وهو أحد المخلفين الذين تاب الله عليهم، يطلب منه أن يقدم إليهم في الشام، وكان هذا بعد غزوة تبوك وهو في المدينة.[1] وقد وصلت معلومات ملك غسان وهو من عملاء الروم إلى معرفة تامة بحال فرد من المسلمين في هذه الغزوة، وموقف الرسول ﷺ منه، فمن باب أولى أن يكون على اطلاع بتحرك جيش الرسول ﷺ من المدينة إلى تبوك، والإعداد لهذا الجيش قبل التحرك، خصوصًا أن وجهته كانت معلنة وجواسيس الروم يصلون إلى المدينة، ولعل ملك الروم كان على يقين تام بصدق الرسول، ولذلك آثر عدم التعرض لهذا الجيش خوفًا منه وإدراكاً أن الرسول ﷺ ظاهرٌ عليهم عاجلاً أم آجلاً، حيث أن هرقل ما إن تسلم رسالة الرسول ﷺ واستمع أخباره ممن يعرفونه، حتى قال لمحدثه: والله لئن كنت صدقتني: «يوشك أن يملك ما تحت موضع قدميَّ هاتين»،[2] وقد عاش حتى شاهد المسلمين بعد ذلك يملكون ما تحت قدميه.[3]

---

(١) انظر: حديث كعب بن مالك عند البخاري (فتح الباري)، ج١/ ٢٤٢.

(٢) من لفظ البخاري (فتح الباري)، ج١٢/ ٧١.

(٣) انظر: كتاب الرسول إلى هرقل الروم.

وانظر: الطبري، تاريخه، ج٤/ ٣٨؛ والأزدي، فتوح الشام، ص ٢٣٦.

وبعد أن أثبت الرسول ﷺ قوة المسلمين في أطراف جزيرة العرب عاد مرة أخرى إلى المدينة. وفي الطريق لقي الأذى ﷺ من بعض المنافقين، حيث حاولت مجموعة منهم قدرت بأربعة عشر رجلاً قتل رسول الله ﷺ، حينما كان ﷺ يسير في عقبة ليتجاوزها، وأمر من ينادي في الناس: إن رسول الله أخذ العقبة فلا يأخذها أحد ـ والعقبة طريق ضيق في الجبل لا يكاد يمر منه الراكب ـ وكان يقود بالرسول ﷺ حذيفة بن اليمان ويسوق به عمار بن ياسر رضي الله عنهم.

فأقبل مجموعة من الرجال ملثمين على رواحلهم حتى غشوا عمارًا رضي الله عنه وهو يضرب وجوه رواحلهم ليبعدهم عن رسول الله، فقال ﷺ لحذيفة: قُدْ. قُدْ، وحين هبط رسول الله ﷺ قال لعمار رضي الله عنه: هل عرفت القوم؟ قال عمار: قد عرفت الرواحل والقوم ملثمين: قال له الرسول ﷺ: هل تدري ما أرادوا؟ قال عمار رضي الله عنه الله ورسوله أعلم، قال أرادوا أن ينفروا برسول الله فيطرحوه.[1]

وقد عاد الرسول ﷺ إلى المدينة فلما أقبل عليها قال: ((هذه طابةُ وهذا جبل أُحُد يحبنا ونحبه))،[2] وخرج النساء والصبيان لاستقبال المسلمين، وكان الصبيان ينشدون:

---

(١) انظر: الإمام أحمد بن حنبل، المسند، ج٥/ ٣٩٠، ٣٩١، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥ / ٦٦٩.

(٢) البخاري (فتح الباري)، ج ١٦/ ٢٥٦؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص٣٩٧.

طلع البدرُ علينا من ثنِيّات الوداعْ
وجبَ الشكرُ علينا ما دعا لله داعْ[1]

كانت هذه الغزوة تربية للمجتمع المسلم كافةً للمشاركة في الجهاد بالنفس والمال، وتربية للأمة كلها على بعد النظر والطموح العالي، حيث أن الرسول ﷺ قبل أن يودع أمته إلى الرفيق الأعلى لفت نظرها إلى الروم، في حركة جهادية عملية لتقوم بالفتوح في نواحيها، بعد ذلك لم تنته قضايا تلك الغزوة بوصول الرسول ﷺ إلى المدينة، بل ارتبطت به قضية مسجد الضرار، وكذلك قضية المخلفين الذين جاؤا يعتذرون إلى الرسول بسبب تخلفهم عنه، فمنهم المنافقون الذين اعتذروا بالكذب وبالباطل ففضحهم الله، ومنهم الذين تخلفوا ولكنهم التزموا الصدق في اعتذارهم لرسول الله ﷺ، وهم الثلاثة الذين تخلّفوا وعلى رأسهم كعب بن مالك، فهجرهم الرسول فترة من الوقت، ثم تاب الله عليهم في قرآن يتلى إلى يوم القيامة.[2] وقد تحدثت بعض الآيات في القرآن الكريم عن غزوة تبوك في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ

---

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري، ج١٦/٢٥٩، وانظر د. رزق الله، السيرة النبوية، ص٦٣١.

(٢) انظر: تفاصيل حال المعتذرين في حديث كعب بن مالك السابق ذكره في (فتح الباري)، ج١٦/٢٤٢؛ وابن أبي شيبة، المغازي، بسند متصل، ص٣٩٨.

ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا
مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ
عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا
تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ
تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ
هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ
بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾
لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ
وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ
إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ
ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾
إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ
فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ
وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾
لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ
وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن
قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ
كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ

سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ
تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ
وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ
مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ
إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ
عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة].

ويقول تعالى أيضًا عن هذه الغزوة في السورة نفسها
﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ
لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ
﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ
بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ
لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ
﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ
مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ
ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ
بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا
يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ
أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ
وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ
عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ
جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ
ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ
ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾
لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا
يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ
مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا
يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ
رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾
يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا
ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ
ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ
لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ
وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ
لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [التوبة].

ويقول الله سبحانه وتعالى راضيًا عن المؤمنين الذين اتبعوا نبيه في هذه الغزوة: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ
ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ
مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ
ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ

أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ
ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن
يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا
يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا
يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ
صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً
وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا
نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا
رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم
مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾
[التوبة].

حج أبي بكر بالناس

(سنة ٩ هـ)[١]

فتح الرسول ﷺ مكة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة، ولم يحج في السنة نفسها، ولم يؤمِّر على الحج، ثم انشغل ﷺ باستقبال الوفود وعدد من الغزوات والسرايا منها غزوة تبوك. وحينما جاء موسم الحج في السنة التاسعة للهجرة كره ﷺ أن يحج ذاك العام، في وقت يَحضُر الحجَّ مشركو العرب كعادتهم، ولذلك قال ﷺ: ((إنه يحضره عراة مشركون يطوفون بالبيت فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك)).[٢]

واختار الرسول ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج لذلك العام، وبعد خروجه دعا النبي ﷺ علي بن أبي

---

(١) أنظر، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حج أبي بكر بالناس ج٥/ ١١٥.

(٢) أنظر: محمد أبو شهبة، السيرة النبوية ج٢/ ٥٣٦.

طالب رضي الله عنه، وحمَّله صدر سورة براءة (التوبة) ليبلغها الناس في الحج، وفيها إعلان للمشركين أن لا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، ونبذ لعهود من له عهد حول الحرم من المشركين، ولذلك حرص الرسول أن يبلغ عنه أحد من أهل بيته، وقال لعلي رضي الله عنه: ((لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا أحد من أهل بيتي)).[1]

وخرج علي رضي الله عنه على العضباء، ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلحق بأبي بكر الصديق في ذي الحليفة، ولما رآه الصديق سأله بكل أدب أمير أم مأمور؟ فرد علي رضي الله عنه بكل أدب بل مأمور.[2]

وواصلا الطريق إلى مكة، وتعاون الصديق وعلي (رضي الله عنهما)، حيث كان الصديق أمير الحج وخطيبهم وإمامهم وعلي رضي الله عنه يتلو الآيات من سورة براءة على الناس وفيها قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ

---

(١) أنظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله فسيحوا في الأرض، ج٥/ ٢٠٢، والإمام أحمد في مسنده، ج٣/ ٢٨٣، والترمذي في صحيحه، ج٥/ ٣٧٢.

(٢) أنظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٤/ ٦٩، وأنظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله فسيحوا في الأرض، ج٥/ ٢٠٢.

فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا
ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ
أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ
ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ
وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ
فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ
فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾
كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ
عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ
يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا
وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾
ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ
﴿١٠﴾ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ
وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ
وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِۙ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ
يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ
ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن
كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ
عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ
وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا

يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ
مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي
ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ
ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن
يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ
كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا
يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ
وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم
بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ
أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ
ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن
يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ
وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا
وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ
فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدۡ
نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ
تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم
مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا
لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ
ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)﴾ [التوبة].

وكان بعض الصحابة يبلغون تلك الآيات للناس مع علي رضي الله عنه الذي ناب عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر، ويؤكدون عليهم أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. روى البخاري عن أبي هريرة (أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعثه في الحجة التي أمَّره عليها النبي صلى الله عليه وسلم قبل حجة الوادع يوم النحر في رهط يؤذّن في الناس لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان).[١]

ولا شك أن علياً رضي الله عنه من آل البيت يمثل النبي صلى الله عليه وسلم ويستوثق منه الناس، وخصوصاً من كان له عهد مع النبي صلى الله عليه وسلم وعلي أقرب أهل البيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ومن عادة العرب (في عقد العهود ونقضها أن لا يتولى ذلك إلا سيد القبيلة أو رجل من رهطه)،[٢] فكان قيام علي رضي الله عنه بهذه المهمة تأكيداً للجميع أن هذا ما أراد الله ورسوله، وقد سئل علي رضي الله عنه بأي شيء بعثت في الحجة؟ قال بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يجتمع مسلم وكافر بالبيت الحرام بعد عامه هذا،

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب حج أبي بكر بالناس، ج٥/ ١١٥.

(٢) محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ج٢/ ٥٣٩.

ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعهده إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله إلى أربعة أشهر.[1]

وأما الذين استفادوا من الحادثة في المفاضلة بين أبي بكر وعلي (رضي الله عنهما) فليس هذا في محله، فكل منهما له فضله وله مهمة بأمر الرسول ﷺ، وكل منهما يقوم بما أمر به، ويحب الآخر ويحترمه ويتأدب معه بل إنهما (رضي الله عنهما) كلاً منهما ساهم في عمل الآخر، وساهم معهم بقية الصحابة، سواء في إدارة الحج وشؤونه أم في تبليغ آيات سورة براءة إلى الناس في الحج، فهم يكمل بعضهم بعضاً، هدفهم واحد، هو إعلاء كلمة لا إله إلا الله في الحج وفي غيره، وإذا كنا في هذا الزمان نؤكد ما بلغه علي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ بمنع المشركين والعراة من الحج، فمن باب أولى أن يكون الصحابة في زمن علي رضي الله عنه يقومون بالعمل معه، للهدف نفسه أثناء وجود المشركين، الذين انقطعوا عن مكة بحمد الله بعد سماعهم من علي ومن سانده، وما احتاج المسلمون لتكرار ذلك عبر القرون لانقطاع المشركين عن مكة تماماً.

كان هذا الإنذار وكانت هذه الحجة تمهيداً لحج الرسول ﷺ في العام الذي يليه ((حجة الوداع))،[2] حيث كانت

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد ص ٦٥٥ رواه الترمذي في صحيحه، حديث رقم: ٣٠٩١ وأحمد في المسند ج١/ ٧٩.

(٢) أنظر: حجة الوداع من هذا الكتاب.

البقاع الطاهرة خالية من المشركين ونفوس الحجيج صافية لاستقبال الرسول ﷺ في حج الموحدين لله وفي وداع رسول الله ﷺ للناس كافة، ليبلغ الشاهِدُ منهم الغائب.

الفهرس